

العدالة الإسلامية

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره الشريف)

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٣٨٠ هـ / النجف الأشرف . العراق

الطبعة الثانية

١٤٢٠ هـ ٢٠٠٠ م

مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر

بيروت - لبنان ص.ب: ٦٠٨٠ شوران

البريد الإلكتروني: almoj(ع)aba@shiacen(ع).com

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الله يأمر

بالعدل والإحسان

وإيتاء ذي القربى

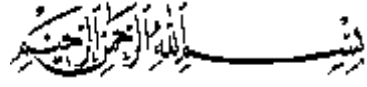
وينهى عن الفحشاء

والمنكر والبغى

يعظكم لعلكم تذكرون

سورة النحل: ٩٠

كلمة الناشر



إن العدالة والمساواة والقسط.. وغيرها من الألفاظ المتقاربة المعاني لغة وربما اصطلاحاً، تراها متداولة في الكثير من لغات العالم، وفي الكثير من الدول لاسيما التي تدّعي التحضر والرفي، ولكنها لا تتجاوز إلا شعارات رنانة، تكتب بالخط العريض وتقام لها المظاهرات وتعقد لها المهرجانات الخطابية الحماسية فحسب!

فما هي الديمقراطيات التي تطرح؟

والحريات التي ينادى بها في جميع بقاع العالم، حتى إن المستعمرين هيمنوا على دول الأرض تحت هذه الشعارات وهذه الكلمات الجوفاء والخالية من الروح والمعنى الحقيقي لها..

فالعدالة يجب أن تؤخذ من قوانين السماء، ويلزم أن نستفيدها من الوحي والتنزيل، ويطبقها أنبياء وأوصياء أمناء عليها، علماء بها، حكماء في تطبيقها.

فإن الرسائل السماوية أنزلت وتأيدت بالكتب والمعجزات والرسائل الربانية من أجل تحقيق معنى هذه الكلمة وتطبيق حقيقة هذا الشعار الاجتماعي العام..

فإن الإنسان هو الذي يحرم أخيه الإنسان من أبسط حقوقه فيطغى عليه إما بالسلطة أو بالقوة والغلبة أو بالمال والاقتصاد، فيخلخل الموازين الاجتماعية وتختل العدالة وربما تذهب إلى غير رجعة لولا السماء ورسالاتها المتتابعة..

فهي المنقذ كلما اكتسحت بني البشر موجة عاتية من أمواج الظلم والجهل والطغيان، وراح الإنسان يظلم ويستعبد أخيه الإنسان بلا شفقة ولا رحمة ولا وازع

من خلق أو ضمير..

والإسلام هو الرسالة الخاتمة، وهو المنقذ الأخير للبشرية.
والذي يقرأ تاريخ العالم حين بعث الرسول الأعظم (ص) يعرف تمام المعرفة
حقيقة ما ذكرناه، والذي ينظر اليوم إلى خارطة العالم بتغوص وتمعن يعلم أن الأزمة
العالمية هي أزمة اللاعدالة وهي أزمة مفتعلة من البشر نفسه..
والإسلام الحنيف كدين سماوي هو الحل الوحيد للعالم أجمع..
و«العدالة الإسلامية» هو عنوان هذا الكتاب القيم الذي جاد به سماحة
المرجع الديني الأعلى الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (دام ظله) قبل أكثر من
أربعين سنة، وهو كتاب لطيف وجميل في موضوعه وعميق في بحثه وقد قمنا بطبعه
مجدداً تعميماً للفائدة.

مؤسسة المجتبي للتحقيق والنشر

بيروت - لبنان، ص.ب: ٦٠٨٠ / ١٣

مقدمة الناشر

في الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾^(١).

إن أقرب الوسائل للوصول إلى الله تعالى، وللنيل من منابعه الفيضة وفواضله العميمة على الخلق: هو العمل في سبيل رفع راية الإسلام، والجهاد في سبيله، وصيانتته من أيادي الدخلاء والعملاء..

والوسيلة التي نصل بها إلى هذا الهدف الأسمى إنما تتم عن طريق الدعاية والقيام بنشرها على أكمل وجه وأصوبه..

ونحن نريد: أن نضع بين - ظهراي المسلمين وغير المسلمين - معلومات عامة من (منابع الثقافة الإسلامية) التي شملها هذا القانون الإسلامي لكي يعرفوا جيدا ما في هذا الدين من ثمار شهية ومنابع ثرية تغني روادها من الاستنجد بالشرق والغرب لحل مشاكلها السياسية، أو الاقتصادية، أو المدنية.

ونحن - إذ نسير بواجبنا الإسلامي سيرنا السريع - نأمل من كبار الباحثين المتعمقين في الدراسة الإسلامية أن يساعدونا في هذا المشروع الجبار ويشاركونا في أداء هذا الواجب، بكتاباتهم القيمة، ودراساتهم العميقة حول الإسلام..

^(١) سورة المائدة: ٣٥.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾^(٢).
﴿وإن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾^(٣).
﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾^(٤).
والله تعالى الهادي الموفق.

مكتب منابع الثقافة الإسلامية
١٣٨٠ هـ / العراق

^(٢) سورة الزلزلة: ٧.

^(٣) سورة آل عمران: ١٧١.

^(٤) سورة التوبة: ١٠٥.

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين ولعنة الله على أعدائهم إلى يوم الدين.
جعل الإسلام منهاجاً دقيقاً للحياة يشتمل جميع جوانبها، ولا يشذ عنها شاذ، فهو يقرر:

برامج للفرد..

ودساتير للعائلة..

ومناهج للمجتمع..

إلى جنب أنه يقرر للروح أنظمة..

وللجسم قوانين..

ثم يربط الجميع برابط عام يكون بمثابة الروح للقوانين والمقاييس.. وهو تقوى الله الذي يعلم السر والعلن، والظاهر والباطن.. يجازي بالإحسان حسناً، وبالإساءة سيئاً.

وبذلك يستتب النظام.. وتتسق الأمور.. في إطار عام من السكينة والراحة، والهدوء والرفاه.. فينقلب المجتمع من الجحيم الذي لا يطاق إلى جنة نعيم، يضرب الأمن والسعادة أطنابه على الأفراد والجماعات..

وتخيم الراحة والرفاه على كل ذي روح.. وفي مثل هذا الظرف فقط ينمو كل شيء نموّه المقدر له، ويكتمل كماله اللائق به.. فتزدهر الحياة المادية وتستقيم

الملكات الروحية.. في ظل الحق والعدل.

والإسلام في عهده الطويل الذي كان قابضاً بزمام الحكم طيلة ثلاثة عشر قرناً بما في ذلك من بعض الخارجين على أنظمتهم، والدخلاء العاملين بوحى من أهوائهم وشهواتهم الرخيصة.. قد أدبنا ما لم يسبق له في التاريخ نظير..

أما هذا العصر: عصر القتل والجهل.. والسجن والظلم.. والمرض والفقير.. «قرن العشرين» فيكفي أقل نظر إليه، ثم مقايسته بالعصر الإسلامي، كي يعلم الفرق الواضح.. والبون الشاسع، ويعرف إلى أي مهوى تردت البشرية في ظل الأنظمة المسماة بالديمقراطية!! والحكومات الدستورية.. إذ أزيح الإسلام عن الحكم واستبد به الغرب المادي.. والشرق الملحد.

ومن السمات البارزة للإسلام، والخطوط العريضة التي وضعها للرفاه والسعادة: هي (العدالة) و(المساواة) اللتان يتحلى بهما هذا الدين، في كل جانب من جوانبه، وناحية من نواحيه: ناحية السلطة والقضاء.. والعائلة والأسرة.. والمعاملة والمعاشرة.. وأخيراً: المجتمع كله.

وها نحن نقدم طرفاً من العدالة والمساواة الإسلاميتين في هذا الكتاب، إيضاحاً للحقيقة.. وتنويراً للمجتمع.. حتى يعرفوا كم خسر العالم من إزاحة الإسلام عن الحكم، لعل أن يندموا على ما فرطوا، ويعملوا لأن تكون كلمة الإسلام هي السائدة، وبها يرجع ما فاتهم من خيرات إلى عالم الوجود، وبذلك يكونوا قد قدموا إلى البشرية خير الدنيا، وسعادة الآخرة.

ولا أراني بحاجة إلى المقارنات، بين العدالة الإسلامية، وبين العدالة المسماة بالديمقراطية! (إن كانت فيها عدالة) التي تظللنا اليوم..

إذ كلنا يعرف هذا العدالة المزعومة، ولا يحتاج إلى أكثر من أن يرى العدالة الإسلامية، كما أن من في الظلمة لا يحتاج. لعرفانه الحقيقة. إلى أكثر من أن يفتح له روشن من الضياء، كي يدرك ما يعيش فيه من الظلمة والعمى! والله الموفق.

كربلاء المقدسة
محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

الخطوط العامة

الإسلام يرى الكون جهازاً موحداً يرتبط بعض أجزائه ببعض كارتباط الطائرة بعض ألاتها ببعض، وقد خلق الجميع خالق عالم قدير لأغراض معقولة، وأهداف حكيمة، لا فرق في ذلك بين سمائه وأرضه.. نباته وجماده.. حيوانه وإنسانه.. صلبه وسائله.. كبيره وصغيره..

فالكل مرتبط في تناسق بديع، وإحكام رصين، والكل في قبضته يديرها كيف يشاء، ويقلبها كما يريد.. فكل ذرة وضعت في موضعها اللائق بها، بحيث لو حادت عنه، أورثت تفككاً وخبالاً...

فبالعدل جعلت الكواكب، وخلقت الأقمار، واختلف الليل والنهار..

وبالعدل جرت الأنهار وعذبت.. وركدت البحار وملحت..

وبالعدل ينبت النبات وتخرج الأرض زهرتها..

وبالعدل يحس الحيوان ويدرك مطالبه ومقوماته..

وبالعدل يبصر الإنسان ويسمع ويشم ويتذوق، ويلمس ويدرك، ويعلم ويشعر،

ويجوع ويعطش.

لا كما يظن الخراصون! من أن العالم خلق صدفة، وتولد الإنسان من سلالة القرود، وكل شيء يرجع إلى أصل واحد، ثم تنوع حسب البيئات والصدف، عن طبيعة عمياء جاهلة!، إنه . في منطق الإسلام والعلم . فرار عن الحقائق ولجوء إلى أوهام.

إذاً: فبالعدل قامت السماوات والأرضون.. وبالمقاييس الدقيقة والمقادير العادلة

تجري الأكوام لمستقر لها، ذلك تقدير العزيز العليم^(٥).. حتى أن كل حبة من حبات الرمال، وكل جرثومة من جراثيم الحياة، وكل خلية من خلايا الأشجار.. وهكذا.. جعلت في المحل اللائق بها، والمكان المناسب لها، وإن لم يعرف السر والحكمة أقوام، وجهل العلة والسبب أجيال.

أرأيت كيف فشل (دارون)^(٦) لما سُلط الضوء على الزائدة الدودية؟

أرأيت كيف انسحب من المعركة (فرويد)^(٧) حيث تقدم علم النفس؟

أرأيت كيف شُجِب (ماركس)^(٨) إذ تبينت أصالة الغرائز الطبقيّة في الإنسان؟

وأرأيت..؟

وأرأيت..؟

فالعَدل هو المقياس العام الذي يلف في إطاره الكون: من المجرة إلى الذرة.. ومن المادة إلى الروح.. ومن الحياة إلى الموت.. ومن الضياء إلى الظلمة.. ومن الدفء إلى البرد.. قال الإمام الصادق عليه السلام لمفضل: (جهلوا الأسباب والمعاني في الخلق، وقصرت أفهامهم عن تأمل الصواب والحكمة، في ما ذرأ الباري جل قدسه وبراً من صنوف خلقه في البر والبحر والسهل والوعر، فخرجوا لقصر علومهم إلى

^(٥) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾. سورة يس: ٣٨.

^(٦) داروين ، تشارلز روبرت (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) صاحب النظرية الداروينية في اصل الانواع وتطورها وهو يقول بان الكائنات الحية تنزع الى انتاج مواليد تختلف اختلافا طفيفا عن آباؤها، وبان عملية الاصطفاء الطبيعي (را.) تفضي الى بقاء الاصلح او الاكثر تكيفا مع البيئة وبان ذلك كله يؤدي في نهاية المطاف الى ظهور انواع جديدة لم تكن معروفة من قبل، وقد بسط داروين مذهبه هذا في كتابه (في اصل الأنواع). on the origin of species. الذي اثار عند نشره عام ١٨٥٩م عاصفة في الدوائر العلمية والفلسفية والدينية جميعاً فهلل له جمع وسفهه آخرون وقد وجهت له حملات نقدية كثيرة حتى الآن.

^(٧) فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) طبيب امراض عصبية، نمساوي، اكد على اثر اللاوعي والغريزة الجنسية في تكوين الشخصية، اصيب بالسرطان حوالي عام ١٩٢٣م ومات به، اشهر آثاره (دراسات في المستيريا) hysteyie bien ber استعما ١٨٩٥م و(تأويل الاحلام) dile tyaumdeutung عام ١٨٩٩م.

^(٨) ماركس كارل (١٨١٨ - ١٨٨٣م) ، نشر مع صديقه (فريدريك انجلز) كتاب (البيان الشيوعي) عام ١٨٤٨م communist manifesto واشهر آثاره (رأس المال) das kapital. في ثلاثة مجلدات.

الجحود... وادعوا أن كونها بالإهمال، لا صنعة فيها ولا تقدير.. فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً، قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة، والملابس والمآدب، التي يحتاج إليها لا يستغني عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه، على صواب من التقدير وحكمة من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً، ويطوفون بيوتها إقبالاً وإدباراً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار، وما أعد فيها، وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه، وأعد للحاجة إليه، وهو جاهل بالمعنى فيه، ولما أعد، ولماذا جعل كذلك، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها، فهذا حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلق، وثبات الصنعة، فإنهم لما غربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء، صاروا يجولون في هذا العالم، حيارى ولا يفهمون ما هو عليه من إتقان خلقتهم، وحسن صنعتهم، وصواب تهيئته، وربما وقف بعضهم على الشيء لجهل سببه، والإرب فيه، فيسرع إلى ذمه ووصفه بالإحالة والخطأ..^(٩).

يا مفضل، أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه، تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها على ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك، وميزته بعقلك، وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسمااء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالسطح، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمملك ذلك البيت والمخول جميع ما فيه، وضروب النبات مهياة لمآدبه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه...^(١٠).

كل شيء موضوع في محله، وكل جزء منه مرتبط بالآخر فشمس تمد الهواء، وهواء يرفع الماء، وماء يحيي الأرض، فتهتز وتنبت من كل زوج بهيج.. ونبات يأكله

^(٩) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٥٩ ب ٤ ح ١.

^(١٠) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٦١ ب ٤ ح ١.

الحيوان فينقلب منياً ثم يصبح حيواناً.. ثم يعدم ويمسي جزءاً من الأرض التي استمد منها.. وهكذا وهكذا..

حتى أن لبعض الأشياء مما لا يرى له أي ارتباط مع الآخر، يظهر له أوثق الصلات به لدى الدقة والتعمق.

وفي كتاب (غرائب الحيوانات): لو لم يكن للطائر ريش لما عاش على ظهر الأرض إنسان أو حيوان! لأن الريش هو الكساء الذي يغطي جسم الطائر ويصونه من حر الصيف وبرد الشتاء، ولولا هلك الطائر وزال أهم عائق طبيعي يعوق نمو الحشرات، فتنشر بشكل مروع، وتحصد الزرع وتأكل الخضرة، وتموت الحيوانات آكلة العشب، ثم تموت الحيوانات آكلة اللحوم، وتصبح الأرض قبراً، لا ديب للحياة فيها.

وفي الطبيعة توازن عجيب بين الحشرات والطيور، فالأولى تظهر في أواخر الربيع من بيضة وضعت في العام السابق، أو من شرنقة كانت تضمها في الشتاء، وفي نفس الوقت الذي تكثر فيه الحشرات، تكون صغار الطيور قد خرجت من بيضها واحتاجت إلى الغذاء، فيجمع لها أبواها الحشرات بمقادير كبيرة من مطلع الشمس إلى مغربها، فينقص عدد الحشرات نقصاً بالغاً، ولولا ذلك لأصبحت وباءاً يعجز الإنسان عن مكافحته.

وإذا كان الإسلام ينظر إلى الكون هذه النظرة، ويؤمن بالعدل في كل شيء.. فمن البديهي أن يقرر القوانين العادلة، وينظم الأنظمة المستقيمة، للسير بالكون إلى الأمام.. إلى النمو الصحيح والازدهار.. حتى أن كل منهج من مناهجه، وكل حكم من أحكامه.. سياسية كانت، أم اجتماعية، أم قضائية، أم اقتصادية، أم نفسية، أم مادية.. أم.. أم.. أول ما يلاحظ فيها العدل..

فالاتجاه الرصين، والسياسة الراشدة، والقضاء العادل، والاقتصاد المتكامل، والنفس المستقيمة.. هو هدف الإسلام الذي يتوخاه، من جعل الأنظمة، وسن

الدساتير.. وعلى هذه النظرة العامة يضرب الإسلام بيد من حديد، على كل من يمزق العدل، ويبغي الانحراف عن سنة الكون..

فالمنحرف المعتدي، لا يسبب خبالاً على نفسه، ولا فساداً في مجتمعه فحسب، بل هو يمزق النظام، ويسير بالكون إلى غير الهدف، وإن ظهر بادئ ذي بدء ظالماً لنفسه، أو معتدياً على فرد فحسب.. إنه بعمله الاعتدائي، يمثل من يفسد من معمل النسيج . مثلاً . وتداً، إنه ضئيل جداً في أول نظرة: وتدا! وما قيمته؟ لكن لدى الدقة يعرف الخبال الشامل:

١: المعمل سكن عن العمل.

٢: العمال تعطلوا وهم زهاء ألف.

٣: عوائلهم يتضورون جوعاً.

٤: معمل الغزل الذي كان ينتج لغرض نسج هذا المعمل سكن.

٥: عماله تعطلوا.

٦: عوائلهم افتقروا.

٧: جهاز بيع الصوف المصروف لغرض الغزل توقف.

٨: كسر السوق على مقدار افتقار العمال، فآثر في سائر البضائع.

٩: تشكل جيش من العاطلين.

١٠: وأخيراً: انتشرت البطالة والتذمر، مما نظم مظاهرة مسلحة ذهبت ضحيتها

نفوس.

وقد مثلوا قديماً: بـ«العجوز التي أثارت فتنة عظيمة بين قبيلتين بإلقائها وردة في الماء» وهكذا يكون التعدي عن العدل، فإن صغيره في النظر، كبير في الواقع.. ولذا يمنح الإسلام هذه الناحية اهتماماً كبيراً، فيوجب العدل، ويحرم الظلم، ويعاقب مقترفه نكالاً شديداً، ويتوعده . في الآخرة . بكل شر.

وفي القرآن الحكيم، والأحاديث الكريمة كثرة هائلة، بهذا العدد:

يقول تعالى: ﴿فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم﴾^(١١).

ويقول سبحانه: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾^(١٢).

ويقول تعالى: ﴿وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾^(١٣).

ويقول سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾^(١٤).

ويقول تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾^(١٥).

إلى غير هذه من الآيات الكثيرة.. وسيأتي بعضها في الفصول القادمة.

أما الأحاديث المحرّضة على العدل . بصورة عامة . فهي كثيرة:

قال رسول الله (ص): (عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها)^(١٦).

وقال الصادق (ع): (العدل أحلى من الماء يصيبه الظمان، ما أوسع العدل إذا عدل فيه وإن قل)^(١٧).

وقال (ع): (العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك)^(١٨).

^(١١) سورة الشورى: ١٥.

^(١٢) سورة الأعراف: ١٥٩.

^(١٣) سورة الأعراف: ١٨١.

^(١٤) سورة المائدة: ٨.

^(١٥) سورة النحل: ٩٠.

^(١٦) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٥٢ ب ٨١ ح ٦١.

^(١٧) الكافي: ج ٢ ص ١٤٧ ح ١٥٥.

^(١٨) الكافي: ج ٢ ص ١٤٧ ح ١٤٤.

وقال (ع): (اتقوا الله واعدلوا..)^(١٩).

وهذه الخطوط العامة للعدل، لا يقصد بها الإسلام أمراً معيناً أو أموراً، بل

المقصود منها العدل في كل شيء:

العدل في الزواج والطلاق.

والعدل في تربية الأولاد.

والعدل في صلة الأرحام.

والعدل في معاشرته الناس.

والعدل في المعاملة.

والعدل في السلطة والقضاء.

والعدل في العبادة والطاعة..

وبالجملة: العدل في كل حركة وسكون، وائتلاف وافتراق، وقصد وعمل..

وعلى ضوء هذا المعنى العام من العدل، يضع الإسلام خطوط المساواة بين

الأفراد والمجتمعات.. فليست المساواة في نظر الإسلام بالمعنى الذي يخلو لبعض

الناس التشدد به، من توزيع الثروات.. واستواء الأفراد.. مهما افترقوا في العمل

والعلم وسائر الميزات.. أمام القانون.

إنه الجور الواضح، فكيف يساوى بين العالم القدير الذي تشع من أنوار علمه

المدن والأرياف، وبين الجاهل الذي لا يساهم في ترقية الحياة شيء، وهكذا.. قل:

بين الطبيب والمهندس والفقير و.. و.. وبين غيرهم ممن لا طائل في وجودهم؟

إذاً: فالمساواة في نظر الإسلام مساواة عادلة، لا مساواة عمياء.. مساواة تراعي

الحقوق المايضة.. فهي مساواة في جهة التساوي وتمايز في جهة الاختلاف، فلا تمايز

بلا مبرر، ولا تساوي من غير استواء، وعلى هذه القاعدة قسم الإسلام الحقوق

والواجبات.. على الرجل والمرأة.. والغني والفقير.. والملك والسوقة.. والكبير

^(١٩) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٣٨ ب ٣٥ ح ٣٦.

والصغير.. والشريف والوضيع.. والأفراد والجماعات..

فصل

في عدالة الأسرة

عدالة الأسرة

يتكون الاجتماع من الأسر، فهي وحدات تتشكل منها الجماعات، وأول الأسرة: زوجان رجل وامرأة، فهي اللبنة الأولى في قاعدة المجتمع، وهذا الرباط له ناحيتان: ناحية الزواج والطلاق، وناحية العشرة والألفة.

وقد اهتم الإسلام بالعدالة التامة في هاتين الناحيتين، حتى أن لحاظ الأوامر الصادرة لضمان العائلة يكفي لدرك المدى البعيد الذي نظر إليه الإسلام لتأمين العدالة في الزواج والعشرة والطلاق.

ولنقف قليلاً عند كل من الزواج، والعشرة، والطلاق.. كي نرى العدالة المأخوذة في كل منها.

الزواج

الزواج رباط مقدس في نظر الإسلام، ترتبط به الحياة العائلية أولاً، وتربية الأولاد ثانياً، وتكوّن المجتمع ثالثاً.. ولذا يهتم الإسلام به أكبر اهتمام، ويدقق في لحاظ العدالة في جميع شؤونه، فيشترط الكفاءة بين الزوجين . باديء ذي بدء ..
والكفاءة في نظر الإسلام ليست بالمال والجمال والشرف، فإن الإسلام لا يقيم لهذه الأمور وزناً عند الله ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٢٠) بل الكفاءة الإسلامية هي المناط، ففي ظله يزدهر العيش، ويخيم الرفاه، وتظل السعادة.. أما المال والجمال والجاه فإنها يجب أن تكون سبباً لشد الرباط في المجتمع، لا لتمزيق الصلة.. ولتقريب الأفراد بعضهم إلى بعض، لا لتبعيدهم بعضهم عن بعض.. فكيف يجعلها الإسلام فوارق تفصل طبقة عن طبقة، وجماعات عن جماعات؟ بل يقف الإسلام من هذه الفوارق المزعومة موقف العدو اللدود، ويصب غضبه على من يقيم لهذه الأمور وزناً.

قال أبو حمزة الثمالي: (كنت عند أبي جعفر (ع)، إذا استأذن عليه رجل فأذن له فدخل عليه فسلم فرحب به أبو جعفر وأدناه وسأله فقال الرجل جعلت فداك، إني خطبت إلى مولاك فلان بن أبي رافع ابنته فلانة، فردني ورغب عني وازدراني، لدماستي وحاجتي وغربتني! وقد دخلني من ذلك عضاضة غص لها قلبي تمنيت عندها الموت.

فقال أبو جعفر (ع) اذهب، فأنت رسولي إليه، وقل له: يقول لك محمد بن

^(٢٠) سورة الحجرات: ١٣، راجع الكافي: ج ٥ ص ٣٤٤ ح ٢٠.

علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (ع): زوج منجح بن رباح مولاي ابنتك فلانة ولا ترده.. ثم قال أبو جعفر(ع): إن رجلاً كان من أهل اليمامة يقال له: جووير، أتى رسول الله (ص) منتجعاً للإسلام، فأسلم وحسن إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان.. وإن رسول الله (ص) نظر إلى جووير ذات يوم برحمة منه له ورقة عليه، فقال: يا جووير لو تزوجت امرأة، فغففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك؟

فقال له جووير: يا رسول الله (ص)، بأبي أنت وأمي، من يرغب في؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأية امرأة ترغب في؟ فقال له رسول الله: يا جووير، إن الله قد وضع بالإسلام من كان بالجاهلية شريفاً، وشرف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً، وأعز بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلاً، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية، وتفآخرها بعشائرها وباسق أنسابها..

فالناس اليوم كلهم: أبيضهم وأسودهم، وقرشيتهم وعرييتهم وعجميتهم، من آدم، وإن آدم خلقه الله من طين، وأن أحب الناس إلى الله عزوجل يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم، وما أعلم يا جووير لأحد من المسلمين عليك اليوم فضلاً، إلا لمن كان اتقى الله منك وأطوع.

ثم قال له: انطلق يا جووير إلى زياد بن لبيد، فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له: إني رسول رسول الله(ص) إليك، وهو يقول لك: زوج جوويراً ابنتك الدلفاء.

إلى آخر الحديث^(٢١)..

وفيه: إن زياد أطاع النبي (ص) وزوج جووير ابنته الدلفاء، بعد ما راجع النبي (ص) فقال له: (يا زياد، جووير مؤمن، والمؤمن كفؤ المؤمنة، والمسلم كفؤ المسلمة،

^(٢١) الكافي: ج ٥ ص ٣٣٩ ح ١.

فزوجته يا زياد ولا ترغب عنه) (٢٢).

ولم يكن نبي الإسلام العظيم (ص)، والأئمة الطاهرون (عليهم السلام)، ككثير من زعماء العالم وكبرائه يسنون القوانين للشعوب ثم يترفعون هم بأنفسهم عنها جرياً وراء الزعامة المزعومة، والشرف الموهوم، بل كانوا (عليهم السلام) أشد الناس تمسكاً بمبادئ الإسلام، ومناهج القرآن:

قال الإمام الصادق (ع): (إن رسول الله (ص) زوج المقداد بن الأسود صنباة ابنة الزبير بن عبد المطلب، ثم قال: إنما زوجها المقداد، لتضع المناكح، ولتأسوا برسول الله (ص)، ولتعلموا أن أكرمكم عند الله أتقاكم، وكان الزبير أخا عبد الله وأبي طالب لأبيهما وأمهما) (٢٣).

وروى يزيد بن حاتم، قال: (كان لعبد الملك بن مروان . الخليفة الأموي . عين بالمدينة يكتب إليه بأخبار ما يحدث فيها، وإن علي بن الحسين (عليهما السلام) أعتق جارية له ثم تزوجها، فكتب العين إلى عبد الملك، فكتب عبد الملك إلى علي بن الحسين (ع): أما بعد فقد بلغني تزويجك مولاتك، وقد علمت أنه في أكفائك من قريش من تمجد به في الصهر، وتستنجبه في الولد، فلا لنفسك نظرت، ولا على ولدك أبقيت، والسلام، فكتب إليه علي بن الحسين (عليه السلام) :

(أما بعد: فقد بلغني كتابك، تعنفتني بتزويج مولاتي، وتزعم أنه قد كان في نساء قريش من أتمجد به في الصهر، واستنجبه في الولد! وأنه ليس فوق رسول الله (ص) مرتقى في مجد، ولا مستزاد في كرم، وإنما كانت ملك يميني، خرجت مني، أراد الله عزوجل مني بأمر التمسست ثوابه، ثم ارتجعتها على سنته، ومن كان زكياً في دين الله فليس يخل به شيء من أمره، وقد رفع الله بالإسلام الخسيصة، وتمم به النقيصة،

(٢٢) الكافي: ج ٥ ص ٣٣٩ ح ١.

(٢٣) الكافي: ج ٥ ص ٣٤٤ ح ٢.

واذهب به اللؤم، فلا لؤم على امرئ مسلم، إنما اللوم لوم الجاهلية والسلام^(٢٤).

وفي حديث آخر: زيادة هذه الجملة: (ولنا برسول الله أسوة، زوج زينب بنت عمه زيدا مولاه، وتزوج مولاته صفية بنت يحيى بن أخطب)^(٢٥).

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك، قال: «لقد صنع علي بن الحسين (ع) أمرين، ما كان يصنعها أحد إلا علي بن الحسين، فإن بذلك زاد شرفاً»^(٢٦).

وروى زرارة عن أبي جعفر (ع) . في حديث :: أن علي بن الحسين (ع) تزوج امرأة: (.. وكان له صديق من الأنصار، فاغتم لذلك وسئل عنها؟ فأخبر أنها من بني شيبان، في بيت عال من قومها، فأقبل على علي بن الحسين عليه السلام، فقال: ما زال تزويجك هذه المرأة في نفسي، وقلت: تزوج علي بن الحسين امرأة مجهولة، ويقوله الناس أيضاً، فلم أزل أسأل عنها، حتى عرفت ما ووجدتها في بيت قومها شيبانية! فقال له علي بن الحسين (ع): قد كنت أحسبك أحسن رأياً مما أرى! إن الله أتى بالإسلام فرفع به الخسيصة، وأتم به الناقصة، وكرم به من اللوم، فلا لوم على مسلم)^(٢٧).

^(٢٤) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٤٧ ب ٢٧ ح ٢.

^(٢٥) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥٠ ب ٢٧ ح ١٠.

^(٢٦) تهذيب الأحكام: ج ٧ ص ٣٩٧ ب ٢١ ح ١١.

^(٢٧) وسائل الشيعة: ج ١٤ ص ٥٠ ب ٢٧ ح ١١.

تعدد الزوجات

وقد يسنح خصوم الإسلام، فرصة تعدد الزوجات لمهاجمة العدالة الإسلامية، لكن الأمر بالعكس: إن إباحة تعدد الزوجات، من أدق العدالات الإسلامية، التي لا عدالة بمثلها.. وأقل نظرة إلى المجتمعات التي تحرم التعدد، مما يسبب نشور أو تفشي الزنا واللواط، واتخاذ الرجال خليلات، والنساء أخلاء.. ثم المرض الناجم عن هذه الأعمال القذرة.. كافية لدرك العدالة الإسلامية في هذا الشأن..

(فقد قرر أساتذة علم الاجتماع، أمثال: (جينز برح)، و(وسترمارك): إن تعدد الزوجات كان النظام المتبع في الشعوب المتمدنة، في حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة، وإن الشعوب التي كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد، كما أن الشعوب التي أجازت الزواج بأكثر من واحدة، إنما أجازته طبقاً لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية، دون نظر كذلك إلى الدين، فلم يرد في الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة، وإن الإسلام في إباحة تعدد الزوجات قد أباحه في حدود بعينها، ولظروف حددها، وبقيود تجعل من العسير الأخذ بها إلا في حالات اضطرارية.

هذا ويثبت علم الإحصاء أن نسبة الوفيات في الذكور أكثر منها في الإناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشباب.. الأمر الذي يسبب زيادة نسبة الأحياء من الإناث على الذكور..

وفي طور الشباب تظل النسبة كذلك محفوظة، إذ يموت من الشبان أكثر من الشابات. وذلك يرجع إلى الحروب أولاً، التي تكون نسبة الوفيات منها قليل

واحدة، لكل أربعة آلاف قتيل.. ويرجع كذلك إلى أخطار العمل، ففي المصانع والمعامل نجد الوفيات بين الشباب أكثر قطعاً مما هي بين الشبابات.. وكذلك بسبب التزاحم في طلب الرزق، من حوادث تزيد كذلك وفيات الشباب عن الإناث.. وكافة الأعمال التي تنتج الأمراض الخطيرة والموت المفاجئ والحوادث القاتلة، يقوم بها الشباب دون الفتيات.. كرجال المطافئ.. والغواصون، ورجال الإنقاذ، ورجال الملاحة وغيرهم.. مما يجعل نسبة الأحياء من الشبابات أكثر من الشباب.. الأمر الذي يقطع بزيادة عددهن عن عدد الشباب.

وإذا افترضنا . جديلاً . أن جيلاً من الأجيال، لسبب أو لغيره، انعدمت فيه الحرب والحوادث، تساوت نسبة الأحياء بين الذكور والإناث في العمر الواحد وحتى مرحلة الشباب، فإن كل شابة تكون صالحة للزواج بل في انتظاره ابتداء من سن البلوغ، في حين أن الذي يصلح للزواج من الشباب ويطلبونه، نسبة تقل كثيراً عن الربع، لأسباب قد تكون تعليمية، إذ أن الطالب يدرس إلى سن تقارب الخامسة والعشرين، وبعد انتهائها لا يقبل على الزواج إلا بعد سنوات، في حين أن زميلته في العمر، تكون قد بلغت الثلاثين عاماً، قد كبرت وأصبحت من المتخلفات عن الزواج وتصبح من تصلح كزوجة له عشرات من الشبابات، يبدأ سنهن من السادسة عشرة إلى الثلاثين.. وقد يصرف الشباب النظر عن الزواج أسباب معيشية.. فلا يزيد الشباب الذين تمكنهم حالتهم الاقتصادية من الزواج على الربع بأي حال، ويبقى ثلاثة أرباعهم بلا زواج.. ومن ذلك تظل ثلاثة أرباع الشبابات بلا زواج، ولهذا لو تساوت نسبة العدد.. فما بالنسبة لا تتساوى..؟

كل ذلك يسبب تخلف نسبة كبيرة من الإناث عن الزواج، والنتيجة الحتمية لذلك ما نراه من انتشار البغاء العلني والسري، في الأمم التي تحدد الزوجات، انتشاراً يفوق انتشاره في غيرها أضعافاً مضاعفة كما تنتشر ولادة الأولاد غير الشرعيين، وهم نتيجة الزنا في كثير من البلاد، إلى نسبة خطيرة تصل أحياناً إلى ما

يقرب من ربع المواليد الشرعيين إن لم تزد^(٢٨)، كما تزيد الإصابة بالأمراض السرية في مثل هذه البلاد زيادة كبيرة^(٢٩)..

أفلا يكون تعدد الزوجات في بعض الحالات . علاجاً ناجعاً لمثل هذه المشاكل؟ ولا سيما أن هناك ظروفاً قاسية، تمر بالإنسان لا يجد مندوحة إلاّ من الزواج بامرأة غير زوجته.. أفلا يكون أكرم للزوجة أن تقاسمها غيرها زوجها، في هدوء وبلا ضجة، خصوصاً إذا ما كان بهذه الزوجة من العيوب ما لا يمكن للزوج احتمالها..؟ وفي مقال عن مجلة هاربر، بقلم (سيليج جرينبرج)، ونشرته مجلة المختار، في عددها الصادر في فبراير ١٩٥٨م:

إن بالولايات المتحدة الآن نحو مليون امرأة أكثر من الرجال، ويتنبأ مكتب التعداد، بأن عدد النساء في أمريكا في سنة ١٩٧٥م سوف يربو على عدد الرجال بما يزيد على ٣,٦٠٠,٠٠٠ امرأة، ويعزو علماء الحياة ذلك، إلى ما تتميز به المرأة عن الرجل بدنياً، وإلى أن الأمراض كلها تقريباً تهلك من الرجال أكثر مما تهلك من

(٢٨) وقد كشف مكتب الإحصاء الوطني في المملكة المتحدة أن نصف الأطفال في بريطانيا تنجبهم أمهاتهم خارج الرباط الزوجي، مسجلاً ارتفاعاً مثيراً، إذا كانت النسبة الثلث قبل عشر سنوات وخاصة في مقاطعتي إنجلترا وويلز. وأكد المكتب أن من بين (٨٠٠) ألف امرأة حملن عام ١٩٩٧ هناك (٤٠٠) ألف منهم حملن خارج الإطار الزوجي، مقارنة مع (٣٠٥) ألف امرأة من مجموع (٨١٩) ألف امرأة عام ١٩٨٦.

الرأي الآخر / السنة الثالثة العدد ٣٣. غرة محرم ١٤٢٠هـ

□ كما أكدت هيئة الإحصاء الحكومية الفرنسية في ١٩٩٩/١/٧ أن ٢ من بين كل ٥ مواليد جدد في فرنسا يولدون من سفاح، وازدادت الهيئة ان اولاد السفاح يزدادون تزامناً مع انخفاض معدلات الزواج.

(الرأي الآخر: العدد ٣٠ ص ٥ بتاريخ ١ شوال ١٤١٩هـ / ١٨ / ١٩٩٩)

(٢٩) أما في هذا اليوم فالإصابة بالإيدز أخذت تهدد الشعوب بأسرها لا الأشخاص فحسب وهذه بعض التقارير عن مجلة (المجلة):

٨٥٠٠ شخص جديد يصابون كل يوم بينهم ١٠٠٠ طفل تحت سن ١٥ عاماً.

أكثر من ٨ ملايين طفل فقدوا أمهاتهم بسبب الإصابة بالإيدز.

حوالي ٨ ملايين شخص أصيبوا منذ بداية انتشار المرض وتوفي ٦ ملايين آخرين. (المجلة / العدد ٩٠٥ ، القسم الملحق)

تتجاوز الحالات الجديدة المسجلة سنوياً للأمراض المنقولة جنسياً ٢٣٣ مليون إصابة بين الرجال والنساء وتنقل ما بين ٣٠% و ٧٠% من النساء المصابات هذه الأمراض إلى أطفالهن وتذكر الأكاديمية الأمريكية للعلوم من جهة ثانية أن

هناك ٢٢ مليون شخص في العالم يحملون فيروس الإيدز ويعيش ١٤ مليوناً منهم في إفريقيا كما يسجل المرض انتشاراً

متسارعاً في جنوب وجنوب شرق آسيا. (المجلة العدد ٩٤٨ الملحق ص ٦)

النساء، ولذا فإن في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر (٧,٧٠٠,٠٠٠) أرملة،
ويكفيها مكتب التعداد الأمريكي بأن هذه الفئة سيرتفع عددها في أمريكا بمعدل
مليونين كل عشر سنين، وأن الدكتورة (ماريون لانجر) العاملة الاجتماعية المتخصصة
في استشارات الزواج تقول: إن لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص
المتزايد في الرجال.. إما تعدد الزوجات، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال..
فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الإنسان.. الرجل دون المرأة؟... أم ترى
سيلاً العالم إلى إباحة تعدد الزوجات.. (٣٠)

لكن الإسلام العارف بالضمائر، المطلع على ميول البشر ورغباته، لا يساس
قياد التعدد بدون توجيه وإرشاد، بل يقرر إلى جنب إباحة التعدد لزوم العدالة بين
الأزواج، يقول الله تعالى:

﴿.. فانكحوا ما طاب لكم من النساء: مثنى، وثلاث، ورباع، فإن خفتم
ألا تعدلوا فواحدة﴾ (٣١).

ثم يؤكد تعالى في آية أخرى صعوبة هذه العدالة، وينهى عن الميل إلى التعدد لمن
لا يتمكن من العدل بين أزواج، فيسبب تزوجها الإرهاق بالنسبة إليها، فتصير
كالمعلقة، التي هي لا ذات بعل ولا معلقة، فيقول سبحانه: ﴿ولن تستطيعوا أن
تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن
تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ (٣٢).

وعلى ضوء هذه العدالة يقرر الإسلام تقسيم الليالي، فعلى من تزوج أربعاً، أن
يبيت كل ليلة عند واحدة منهن، كما يجذب العدل الكامل في النفقة والكسوة.. وما
إليها.

(٣٠) الإسلام والعلم الحديث.

(٣١) سورة النساء: ٣.

(٣٢) سورة النساء: ١٢٩.

يروى الحلبي في حديث عن الصادق (ع): (.. إن له أن يتزوج أربع نسوة فلكل امرأة ليلة..)(٣٣).

وسأل معمر بن خلاد أبا الحسن (ع): (هل يفضل الرجل نسائه بعضهن على بعض؟ قال: لا: ولا بأس به في الإمامة)(٣٤).

نعم لا يدخل الإسلام الرجل في العنت بوجوب التساوي الدقيق، مما لا يلائم المشاعر، ولا تحمله العامة، فإن ذلك من العسر والحرج الذين وضعهما الإسلام. قال عبد الملك بن عتبة الهاشمي: (سألت أبا الحسن (ع) عن الرجل تكون له امرأتان، يريد أن يؤثر إحداهما بالكسوة والعطية، أيصلح ذلك؟ قال: لا بأس، واجهد في العدل بينهما)(٣٥).

كما أن الإسلام لا يحول بين المفاضلة القلبية، بأن يحب الرجل إحدى زوجاته أكثر، فإنه مستحيل إذ كيف يسدل الإنسان الستار بين نفسه وبين ما يجب، سأل هشام بن الحكم أبا عبد الله (ع): (عن قوله تعالى: ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء: مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾)(٣٦)؟ قال: يعني في النفقة. وعن قوله تعالى: ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم، فلا تميلوا كل الميل، فتذروها كالمعلقة﴾)(٣٧) يعني في المودة)(٣٨).

وفي حديث زيادة لهذه العبارة: (فإنه لا يقدر أحد على أن يعدل بين امرأتين في المودة)(٣٩).

وقد كان قسم النبي(ص) والوصي (ع) مثلين رائعين في المساواة والعدالة التامة،

(٣٣) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٩ ب ٩ ح ٣.

(٣٤) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٣ ب ٣ ح ٢.

(٣٥) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٣ ب ٣ ح ١.

(٣٦) سورة النساء: ٣.

(٣٧) سورة النساء: ١٢٩.

(٣٨) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٦ ب ٧ ح ١.

(٣٩) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٦ ب ٧ ح ١.

فعن الإمام الصادق (ع)، عن آباءه عليهم السلام: (أن النبي كان يقسم بين نسائه في مرضه، فيطاف به بينهن) ^(٤٠).

وفي حديث (أن أمير المؤمنين (ع) كان له امرأتان، فكان إذا كان يوم واحدة، لا يتوضأ في بيت الأخرى) ^(٤١).

^(٤٠) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٤ ب ٥ ح ٢.

^(٤١) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٨٥ ب ٥ ح ٣.

المساواة بين الزوج والزوجة

وربما يزعم البعض أن الإسلام لم يساو بين الزوج والزوجة في الحقوق والواجبات! لكنه زعم يشجبه الإسلام بنصوصه:

يقول القرآن الحكيم: ﴿.. ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم﴾^(٤٢).

وقد قرر الإسلام لكل من الرجل والمرأة . الزوجين . حقوقاً بإزاء ما جعل عليهما من الواجبات:

فحق الزوجة النفقة والإسكان والكسوة وإشباع الجسد.. وواجبها إطاعة الزوج في التمكين من الاستمتاع والخروج من الدار بإذنه..

والعكس بالعكس: فحق الرجل إطاعة الزوجة له.. وواجبه: النفقة.. الخ..

لكن ليس معنى هذا المساواة العمياء، بل في حدود العدالة العامة، فالرجل . بما أنه المنفق على المرأة، ورئيس الأسرة . لا بد وأن تكون له السلطة، حتى تصل سفينة الأسرة إلى شاطئ السلامة وهذه السلطة هي الدرجة المذكورة في الآية السابقة^(٤٣).. ولذا يفسرها الإسلام في آية أخرى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾^(٤٤) فلهم القوامية عليهن.. لا اعتباراً، بل قبال الواجب الذي هو تنظيم الأسرة، والقوامية ليست

^(٤٢) سورة البقرة: ٢٢٨ .

^(٤٣) سورة البقرة: ٢٢٨ .

^(٤٤) سورة النساء: ٣٤ .

لأنه أكرم وأعز! كلا ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٤٥) بل لأنه مفضل حلقة،
ولأنه أقوى ومنظم الأسرة والمنفق عليها.

وتوضيحاً لذلك نقول: العائلة المكونة من زوجين وبنين وبنات . والأحفاد أحياناً
. هل تحتاج إلى منظم ورئيس أم لا تحتاج؟

والإجابة على ذلك بالإثبات طبعاً، إذ أي فارق بين العائلة وبين المدينة إلا
بالكبر والصغر؟ فكما تحتاج المدينة إلى رئيس وحاكم، فكذا العائلة إذًا: فهل المنظم
والرئيس:

١: الزوج فقط؟

٢: الزوجة فقط؟

٣: كلاهما بالاشتراك؟

لكن الثالث موجب لاختلال النظام، فإن تنفيذ إرادتين في مجتمع واحد يوجب
الانحطاط والفساد، والثاني قلب للمقاييس الفطرية، فإن المرأة أدق مشاعراً، وأقل
احتمالاً للمكآره، بالإضافة إلى أن مدة الحمل والرضاع.. مانعة عن القيمومة التامة،
وبعد ذلك هنا سؤال يفرض نفسه: وهو أن المرأة لم صارت القيم دون الرجل؟..
وحيث فلا مندوحة عن الأول.

^(٤٥) سورة الحجرات: ١٣.

العشرة البيئية

وبعد دور الزواج الذي هو بدء الرباط بين رجل وامرأة، يأتي دور العشرة البيئية، وكيفية معايشة الزوجين.. والأبوين والأولاد بعضهم مع بعض.. وقد قرر الإسلام أفضل الأنظمة التي عرفها البشر منذ فجر التاريخ، إلى هذا اليوم، لتأمين سعادة العائلة، على نحو العدل والاستقامة..

فقد جعل المدار في العشرة: العشرة بالمعروف، بما تحمل هذه الكلمة من معنى إنساني جميل: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾^(٤٦) كما جعل لكل منهما الحق على الآخر بمثل الحق الذي للآخر عليه باستثناء القيمومة: ﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف﴾^(٤٧).

فكل اعتداء من أحد الزوجين مخالف للإسلام، ويستحق مرتكبه العقاب.. بل أكثر من هذا: كل معايشة لا تتصف بكونها معروفة تجاوز عن الحدود وانحراف عن المنهج المقرر.

وبعد ذلك: لا يغفل الإسلام عن طبيعة الرجل المائلة للسيادة فوق ماله من حق القيمومة، ولذا يكرر لزوم عشرته مع زوجته بالإحسان والإغضاء عن زلاتها..

قال رسول الله (ص): (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)^(٤٨).

وقال (ص): (ملعون ملعون من ضيع من يعول)^(٤٩).

^(٤٦) سورة النساء: ١٩.

^(٤٧) سورة البقرة: ٢٢٨.

^(٤٨) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٥٥٥ ب ٢ ح ٤٩٠٨.

^(٤٩) الكافي: ج ٤ ص ١٢ ح ٩.

وقال (ص): (من صبر على خلق امرأة سيئة الخلق واحتسب ذلك الأجر، أعطاه أجر الشاكرين)^(٥٠).

وقال الإمام الصادق (ع): (اتقوا الله في الضعيفين، يعني بذلك: اليتيم والنساء)^(٥١).

وقال إسحاق بن عمار: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: (ما حق المرأة على زوجها الذي إذا فعله كان محسناً؟ قال: يشبعها ويكسوها، وإن جهلت غفر لها)^(٥٢).

وقال (ع): (كانت امرأة عند أبي عليه السلام تؤذيه فيغفر لها)^(٥٣).

وقال (ع): (قال رسول الله (ص): أوصاني جبرئيل عليه السلام بالمرأة، حتى ظننت أنه لا ينبغي طلاقها إلا من فاحشة مبينة)^(٥٤).

وقال يونس بن عمار: (زوجني أبو عبد الله (ع) جارية كانت لإسماعيل ابنه، فقال: أحسن إليها، قلت: وما الإحسان؟ قال: أشبع بطنها، وأكس جثتها، واغفر ذنبها)^(٥٥).

وقال (ع): (رحم الله عبداً أحسن فيما بينه وبين زوجته)^(٥٦). الحديث.

وهل هناك فوق ذلك؟:

المعاشرة بالمعروف..

لهن مثل الذي عليهن..

الصبر على الأذى وغفران الذنب..

ويذهب الإسلام شوطاً أبعد، فيندب على الرجل الزينة للزوجة كما يندب عليها

^(٥٠) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ١١ ب ٢ ح ١١.

^(٥١) من لا يحضره الفقيه: ج ٣ ص ٣٩٢ ب ٢ ح ٤٣٧٩.

^(٥٢) الكافي: ج ٥ ص ٥١٠ ح ١.

^(٥٣) الكافي: ج ٥ ص ٥١٠ ح ١.

^(٥٤) الكافي: ج ٥ ص ٥١٢ ح ٦.

^(٥٥) الكافي: ج ٥ ص ٥١١ ح ٤.

^(٥٦) الكافي: ج ٣ ص ٤٣٣ ب ٢ ح ٤٥٣٧.

الزينة للزوج، وذلك عدالة في الأمر، وتحصناً على النساء حتى أنه يرفع . في الجملة .
لوم عدم عفة النساء على الرجال الذين لا يتزينون لهن.

قال حسن بن الجهم: (رأيت أبا الحسن (ع) اختضب! فقلت: جعلت فداك
اختضبت! فقال: نعم إن التهيئة مما يزيد في عفة النساء، ولقد ترك النساء العفة
بترك أزواجهن التهيئة، ثم قال: أيسرك أن تراها على ما تراك عليه إن كنت على غير
تهيئة؟ قلت: لا، قال: فهو ذاك، ثم قال، من أخلاق الأنبياء: التنظف والتطيب،
وحلق الشعر وكثرة الطروقة..)^(٥٧).

^(٥٧) الكافي: ج ٥ ص ٥٦٧ ح ٥٠.

الطلاق

أباح الإسلام الطلاق، تفادياً عن البشرية كي لا يزهق في حالات كثيرة، وقد جرى في ذلك على حسب خطوط العدالة العامة، فإن المنع عن الطلاق معناه تنكيد كثير من الأزواج، إذ كثيراً ما تكون العشرة مستحيلة، وينقلب البيت جحيماً لا يطاق.

و(الأمر في تطليق المرأة متروك للرجل، وأباحت الشريعة للمرأة أن تطلب من القضاء أن يطلقها على الخروج، إذا أثبتت أنه يضارها ضرراً مادياً أو أدبياً، أو لا يؤدي لها ما توجبه الشريعة على الزوج من حقوق الزوجة..^(٥٨)).

كما قال تعالى: ﴿فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾^(٥٩).

(.. وأساس الفرق بين الرجل والمرأة في استعمال حق الطلاق: إن للرجل حق القوامة والرئاسة فيما يتعلق بشؤون الزوجية، وهو الذي يتحمل وحده أعباءها، فهو ملزم بمهر الزوجة ونفقات الزواج، وملزم بالإنفاق على الزوجة من يوم العقد ولو لم تنتقل إلى بيته، وملزم بالإنفاق عليها وعلى أولادها منه، فأعطى له حق الطلاق مطلقاً من كل قيد، في مقابل هذه المسؤوليات الجسيمة... أما المرأة فأعطى لها حق الطلاق مقيداً بحصول ضرر مادي أو أدبي، وفي هذا ما يتفق مع تقديم الرجل عليها درجة في شؤون الزوجية، وما يحميها حماية كافية من تعنت الزوج، وما يحمي الزوج في الوقت نفسه من أن تسيء الزوجة استعمال حقها في طلب الطلاق)^(٦٠).

^(٥٨) التشريع الجنائي الإسلامي.

^(٥٩) سورة البقرة: ٢٢٩.

^(٦٠) التشريع الجنائي الإسلامي.

ومع ذلك فقد جعل الإسلام الطلاق مكروهاً للغاية، قال الإمام الصادق (ع):
قال رسول الله (ص): (تزوجوا وزوجوا، ألا فمن حظ امرئ مسلم إنفاق قيمة إيمة،
وما من شيء أحب إلى الله عزوجل من بيت يعمر بالنكاح، وما من شيء أبغض
إلى الله عزوجل من بيت يخرب في الإسلام بالفرقة يعني الطلاق)^(٦١).
وفي حديث أنه قال (ع): (تزوجوا ولا تطلقوا، فإن الطلاق يهتز منه
العرش)^(٦٢).

^(٦١) الكافي: ج ٥ ص ٣٢٨ ح ١.

^(٦٢) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٦٨ ب ١ ح ٧.

بين الأبوين والأولاد

وبعد تنظيم الإسلام العدالة بين الزوجين، من حيث النكاح والعشرة والطلاق، يضع التصاميم اللازمة لمراعاة العدالة بين الأبوين والأولاد، فيقرر على كل من الطرفين حقوقاً وواجبات:

فحق الأكبرين على الأولاد الإطاعة لهما والإحسان إليهما، وخفض الجناح إزائهما.. والنفقة لدى افتقار الأبوين واحتياجهما وغناء الأولاد.

وحق الأولاد على الأبوين: الاهتمام بشؤونهم وتربيتهم والإنفاق عليهم..

يقول القرآن الحكيم: ﴿وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٦٣) واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً^(٦٣).

ويقول: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير﴾^(٦٤) وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون^(٦٤).

وقال رسول الله (ص): (بر الوالدين أفضل من الصلاة والصوم والحج والعمرة والجهد في سبيل الله).

وقال (ص): (من أصبح مرضياً لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة).

^(٦٣) سورة الإسراء: ٢٣ و ٢٤.

^(٦٤) سورة لقمان: ١٤ و ١٥.

وقال رجل للإمام الرضا (ع): (أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق عنهما، وإن كانا حين لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله (ص) قال: إن الله بعثني بالرحمة لبالعقوق)^(٦٥).

وقال أبو ولاد الحنيط: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عزوجل: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾^(٦٦) ما هذا الإحسان؟ فقال: أن تحسن صحبتهم، وأن لا تكلفهما أن يسألاك شيئاً مما يحتاجان إليه، وإن كانا مستغنيين، أليس يقول الله عزوجل: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾^(٦٧).

ثم قال: ﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما﴾^(٦٨): قال: إن ضجرك فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما إن ضرباك. قال: ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾^(٦٩): قال: إن ضرباك، فقل لهما: غفر الله لكما، فذلك منك قول كريم، قال: ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾^(٧٠): قال: لا تملأ عينيك من النظر إليهما إلا برحمة ورقة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يدك فوق أيديهما ولا تقدم قدامهما)^(٧١).

إلى كثير.. وكثير.. من أمثال هذه الآيات والأحاديث.

وكما إن الإسلام يقرر حقوقاً على الأولاد تجاه الوالدين، كذلك يقرر حقوقاً على الوالدين إزاء الأولاد، حتى تكافئ الحقوق والواجبات وإن كانت حقوق الوالدين أكثر.. لما تكبدها من المحن لتنشئة الأولاد.

عن أبي الحسن موسى (ع)، قال: (جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول

^(٦٥) الكافي: ج ٢ ص ١٥٩ ح ٨.

^(٦٦) سورة الإسراء: ٢٣.

^(٦٧) سورة آل عمران: ٩٢.

^(٦٨) سورة الإسراء: ٢٣.

^(٦٩) سورة الإسراء: ٢٣.

^(٧٠) سورة الإسراء: ٢٤.

^(٧١) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٠٤ ب ٩٢ ح ١.

الله، ما حق ابني هذا؟ قال (ص): تحسن اسمه، وأدبه، وضعه موضعاً حسناً^(٧٢).
وقال الصادق (ص): (قال رسول الله (ص): رحم الله والدين أعانا ولدهما على
برهما)^(٧٣).

وقال (ع): (قال رسول الله (ص): حق الولد على والده إذا كان ذكراً: أن
يستفره أمه، ويستحسن اسمه، ويعلمه كتاب الله، ويطهره، ويعلمه السباحة، وإذا
كانت أنثى، أن يستفره أمها، ويستحسن اسمها، ويعلمها سورة النور، ولا يعلمها
سورة يوسف^(٧٤)، ولا ينزلها الغرف، ويعجل سراحها إلى بيت زوجها)^(٧٥).

وقال (ع): (من حق الولد على والده ثلاثة: يحسن اسمه، ويعلمه الكتابة،
ويزوجه إذا بلغ)^(٧٦).

وأخيراً يجمع الإسلام عامة حقوق الولد على والديه في ألفاظ قلائل دالة على
ما للأولاد وما عليهم:

روى زيد بن علي عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله (ص): (يلزم الوالدين
من العقوق لولدهما ما يلزم الولد لهما من عقوقهما)^(٧٧).

وقد بلغ من عدل الإسلام ومساواته: أنه كره تفضيل بعض الأولاد على بعض
بغير مبرر:

روى السكوني، قال: (نظر رسول الله (ص) إلى رجل له ابنان، فقبل أحدهما
وترك الآخر، فقال النبي (ص): فهلا واسيت بينهما)^(٧٨).

وهذه نبد من عدالة الإسلام بالنسبة إلى الأسرة: زواجاً وعشرة وطلاقاً، بما فيها

^(٧٢) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٩٨ ب ٨٦ ح ١.

^(٧٣) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٩٩ ب ٨٦ ح ٤.

^(٧٤) إذا كان ذلك سبباً لإغرائها.

^(٧٥) الكافي: ج ٦ ص ٤٨ ح ٦.

^(٧٦) وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٤٨٢ ب ٨٦ ح ٢٧٦٤٦.

^(٧٧) وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٤٨٠ ب ٨٦ ح ٢٧٦٤٢.

^(٧٨) وسائل الشيعة: ج ٢١ ص ٤٨٧ ب ٩١ ح ٢٧٦٦٢.

من أولاد، فهل يوجد في أنظمة العالم قبل الإسلام وبعده مثل هذه العدالة؟
إن الكتب المنسوبة إلى الوحي: من العهدين وغيرهما موجودة، والقوانين الوضعية
ولائد أدمغة قادة الدول..! في متناول الأيدي..

فهل فيها ما يضاهي عشر معشار ما في الشريعة الإسلامية . بالنسبة إلى
الأسرة، التي نحن بصدددها . من قوانين إنسانية، ودساتير عادلة، ومناهج صحيحة،
وأنظمة عطوفة؟

ثم: هل الأسرة قبل الإسلام، كانت كالأسرة الإسلامية، تخيم عليها السعادة،
ويظللها العطف والحب والحنان؟

وهل الأسرة في عصرنا هذا، من حين أزيح الإسلام عن الحكم، وتبعاً لإزاحته
من القيادة الدنيوية، أزيح عن القيادة الروحية والفكرية، تتمتع بما كانت تتمتع بن
من ألوان الرفاه والاستقرار والطمأنينة في ظل الحكم الإسلامي..؟

إن الأسرة اليوم في العالم: شرقه وغربه، تعاني أزمة روحية ومادية، لم يسبق لها
مثيل، وليس ذلك إلا من جراء انطفاء الشرائع السماوية، وبالأخص الإسلام
العظيم، وسيطرة المادية الكافرة على النفوس ولا منجى للأسرة من هذه الكارثة، إلا
التمسك بتعاليم الإسلام، والرجوع إلى شرائع السماء، وللإطلاع على ما تعانيه
الأسرة اليوم، يكفي أقل مراجعة إلى الكتب المعنية بهذا الأمر^(٧٩).

^(٧٩) يذكر طرفاً من ذلك (الأستاذ المودودي) في كتابه (الحجاب).

فصل

في عدالة العشرة

عدالة العشرة

إن الإسلام ضرب الرقم القياسي في تقرير العدالة مع الناس: قريبتهم وبعيدهم، صديقهم وعدوهم. كما هو شأن الإسلام في كل تشريع. فقد جعل عشرة الناس بالحسنى دعامة الحياة السعيدة في الدنيا، والفوز والزلفى في الآخرة.

والقلم يكاد يعجز عن شمول ما للإسلام. في هذه الناحية. من توجيهات وإرشادات، وليس هذا بدعاً من الإسلام الذي يرى الأفراد سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى..

الإسلام الذي يرى الأفراد منتهين إلى أب واحد: هو آدم (ع)، وأم واحدة: هي حواء عليها السلام.. وهما من تراب..

الإسلام الذي يرى البشر عائلة واحدة خلقت لأجل تعمير الأرض والسير بها إلى الرقي، لغرض حياة لا موت فيها.. وراحة لا تعب يشوبها.. وأمن لا خوف ينغصه..

وعلى ضوء هذه النظرة الإنسانية يقرر الإسلام المناهج التالية لتأمين الحياة الاجتماعية:

- ١ . منهج معاشرة الأقرباء..
- ٢ . منهج معاشرة الناس عامة..
- ٣ . منهج معاشرة الأعداء.

منهج معاشرة الأقرباء

أما الأقرباء: فالإسلام يؤكد على صلة بعضهم لبعض، وإحسان بعضهم تجاه الآخرين.. بل فوق ذلك: أنه يوجب التآلف والتقارب بينهم، ويحذر المخالف بالعقاب الأليم.

ولا يوجب الإسلام الصلة على بعض دون بعض، بل كلهم على حد سواء في وجوب صلة رحمه، فعلى كل من الواجب قدر ما له من الحقوق، ويعتني الإسلام بالأرحام أكثر من غيرهم من البعداء، ويشير إلى هذا المعنى الفطري الإنساني القرآن الحكيم، حيث يقول: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾^(٨٠).

فهم أولى بالإحسان والمغفرة، والصلة، والإرث.. أولى بكل شيء، إنهم جمعهم رحم واحدة، ولهم حنين خاص نحو الآخرين، لا يزول. وإن قامت العداوات، واشتجرت المخاصمات. من أقرب منهم، حتى يخص بالرحمة دونهم، فأبوان، وبنين وبنات في الطبقة الأولى، ثم أخوة وأخوات في الطبقة الثانية، ثم جد وجددة، وعم وعممة، وخال وخالة، ومن انتسب إليهم بولادة أو قرابة.. إنهم أقرب الناس والأقرب يمنع الأبعد.. وهم في الدرجة الثالثة من التوقير والاحترام، والإكرام والإحسان في نظر الإسلام.

يقول القرآن الكريم: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله، وبالوالدين إحساناً وذي القربى﴾^(٨١).

«... والأرحام هي القطعة الكبيرة من الأمة، المشتملة على قطع صغيرة، فلو صلحت الأرحام استقامت الأمة، وورقت أغصانها وأتت ثمرتها، وهو التمسك والاتحاد^(٨٢): فرد، فعائلة، فأرحام، فأمة..».

^(٨٠) سورة الأنفال: ٧٥.

^(٨١) سورة البقرة: ٨٣.

^(٨٢) هناك كلمة غير مقروءة في النسخة الموجودة عندنا. (الناشر)

والإسلام كما هو شأنه في كل شيء يتدرج في إصلاح المجتمع، فيهدب الفرد، ثم يصرف النظر إلى العائلة، فيقوي عراها، ويشذب زوائدها، ثم يتوجه إلى الأرحام، فيحكم الصلات بينهم ويندب تماسكهم ويندد بمن قطع الود منهم.. حتى يصل الدور إلى المجتمع، وقد تكاملت أعضاؤه، واستتبت أجزاءه، وانتظمت أفراده وعوائله، فيقرب طريق صلاحه، ويسهل تقوية روابطه. ويجعل الإسلام من الثواب لصلة الرحم، قدرأ يظن الغر أنه محاباة ومبالغة ولكن الحقيقة.. والحقيقة وحدها^(٨٣).

وقد كرر القرآن الإيحاء بالرحم، في مناسبة.. ومناسبة.. فقال: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً، وبذي القربى﴾^(٨٤). وقال: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً﴾^(٨٥).

وقال: ﴿الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾^(٨٦) والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار﴾^(٨٦). والأحاديث عن النبي (ص) والأئمة الطاهرين عليهم السلام كثيرة جداً: قال رسول الله (ص): (أوصي الشاهد من أمتي والغائب، ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة: أن يصل الرحم، وإن كانت منه على مسيرة سنة، فإن ذلك من الدين)^(٨٧).

ولا يتوهم إن في هذا التكليف حرجاً، إذ الصلة على أنواع.. ومنها: إرسال

^(٨٣) الأخلاق الإسلامية: ص ٩٧.

^(٨٤) سورة النساء: ٣٦.

^(٨٥) سورة النساء: ١.

^(٨٦) سورة الرعد: ٢١ و ٢٢.

^(٨٧) الكافي: ج ٢ ص ١٥١ ح ٥.

الكتاب والاستفسار عن الأحوال..

وقال (ص): (إن أعجل الخير ثواباً: صلة الرحم)^(٨٨).

وقال (ص): (من سره النساء في الأجل والزيادة في الرزق فليصل رحمه)^(٨٩).

إن الله تعالى جعل من فضله الواسع هذا الثواب للصلة.. ومما يمكن أن يكون علة لهذا التلازم بين الصلة وبين طول العمر والازدياد في الرزق، هو أن الصلة توجب اطمئنان النفس، وسكون خاطر، وكلما ازداد الإنسان اطمئناناً ازداد صحة واستقراراً.. وبالصحة يطول العمر، والشخص مع الاستقرار أمكن من تحصيل الرزق، فإن من تشتت خاطره لم يتمكن من السعي قدر ما يتمكن غيره، هذا مضافاً إلى الأسباب الغيبية.

وفي هذا المعنى أيضاً، قال (ص): (من سره أن يمد الله في عمره وأن يبسط له في رزقه فليصل رحمه)^(٩٠).

وقال الإمام الصادق (ع): (صلة الرحم وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار)^(٩١).

وقال عليه السلام: (ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلا صلة الرحم، حتى أن الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة، فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة، ويكون أجله ثلاثاً وثلاثين سنة، فيكون قاطعاً للرحم، فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين)^(٩٢).

وقال (ع): (إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب، ويعصمان من الذنوب،

^(٨٨) الكافي: ج ٢ ص ١٥٢ ح ١٥٠.

^(٨٩) الكافي: ج ٢ ص ١٥٢ ح ١٦.

^(٩٠) الكافي: ج ٢ ص ١٥٦ ح ٢٩.

^(٩١) الكافي: ج ٢ ص ١٥٢ ح ١٤.

^(٩٢) الكافي: ج ٢ ص ١٥٢ ح ١٧.

فصلوا أرحامكم، وبروا بإخوانكم، ولو بحسن السلام ورد الجواب) (٩٣).
وقال (ع): (صلة الرحم تهون الحساب يوم القيامة، وهي منسأة في العمر،
وتقي مصارع السوء) (٩٤).

وقال الإمام الباقر (ع): (صلة الأرحام تحسن الخلق، وتسمح الكف، وتطيب
النفس، وتزيد في الرزق، وتنسى في الأجل) (٩٥).
إلى غير ذلك..

والإسلام لا ينظر إلى الرحم كنظر الناس إليها، بالحدود الضيقة والمقاييس
القصيرة، بل الرحم عند الإسلام أوسع منها.. وأوسع..

يروى الحسن بن علي الوشا عن أبي الحسن الرضا عن آباءه عليهم السلام، قال: (قال رسول الله (ص):
لما أسري بي إلى السماء، رأيت رحماً متعلقة بالعرش تشكو إلى الله
رحماً لها، فقلت: كم بينك وبينها من أب؟ فقال: نلتقي في أربعين أباً!) (٩٦).

وكلما كان الشخص أقرب رحماً، كانت صلته أكثر، حتى أن العم بمنزلة الأب،
والخالة بمنزلة الأم، والأخ الأكبر أوجب احتراماً وصلة من غيره.
روى أبو خديجة عن أبي عبد الله (ع) قال:

(جاء إلى النبي (ص) رجل، فقال له: إني ولدت بنتاً وربيتها حتى إذا بلغت
فألبيتها وحليتها، ثم جئت بها إلى قليب، فدفعتها إلى جوفه، فكان آخر ما سمعت
منها وهي تقول: يا أبتاه، فما كفارة ذلك؟

قال (ص): ألك أم حية؟

قال: لا.

قال: فلك خالة حية؟

(٩٣) الكافي: ج ٢ ص ١٥٧ ح ٣١.
(٩٤) الكافي: ج ٢ ص ١٥٧ ح ٣٢.
(٩٥) الكافي: ج ٢ ص ١٥١ ح ٦.
(٩٦) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٢٢ ب ١٠٨ ح ١.

قال: نعم.

قال: فأبررها فإنها بمنزلة الأم، يكفر عنك ما صنعت) ..

قال أبو خديجة: فقلت لأبي عبد الله (ع): متى كان هذا؟ فقال: كان في الجاهلية، وكانوا يقتلون البنات، مخافة أن يسبين فيلدن في قوم آخرين^(٩٧).
وقال رسول الله (ص): (حق كبير الأخوة على صغيرهم كحق الوالد على ولده).

وفي الأحاديث: تسمية العم باسم الأب^(٩٨).

وقد كان نبي الإسلام (ص) وآله الطاهرون عليهم السلام يحضون على صلة الأرحام، ويخصون أكثر الناس براً بأكبر احترام وتقدير..

قال عمار بن حيان: خبرت أبا عبد الله (ع) ببر إسماعيل ابني بي، فقال: (لقد كنت أحبه، وقد ازددت له حباً، إن رسول الله (ص) أتته أخت له من الرضاعة، فلما نظر إليها سر بها، وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها، ثم قامت فذهبت وجاء أخوها، فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به وهو رجل؟ فقال: لأنها كانت أبر بوالديها منه)^(٩٩).

قال زكريا بن إبراهيم . لأبي عبد الله (ع) .: (إني كنت نصرانياً فأسلمت، وإن أبي وأمي على النصرانية وأهل بيتي، وأمي مكفوفة البصر، فأكون معهم، وأكل في آنتهم؟ قال: يأكلون لحم الخنزير؟ فقلت: لا ولا يمسنه، فقال: لا بأس، فانظر أمك فبرها، فإذا ماتت فلا تكلها إلى غيرك، ثم ذكر أنه زاد في برها على ما كان يفعل وهو نصراني فسألته؟ فأخبرها أن الصادق (ع) أمره، فأسلمت)^(١٠٠).

^(٩٧) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢١٥ ب ١٠٣ ح ١.

^(٩٨) وكذلك في قوله تعالى: عن لسان إبراهيم حيث خاطب عمه آزر: ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر...﴾ سورة الأنعام: ٧٤.

^(٩٩) الكافي: ج ٢ ص ١٦١ ح ١٢.

^(١٠٠) وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ٢٠٧ ب ٩٤ ح ٢.

ولقد كان النبي العظيم (ص) وأهل بيته الطاهرون (عليهم السلام) أروع الأمثلة
لصلة الرحم، وذلك وفقاً بطبيعة الإسلام الذي كانت قاداته ألزم الناس بمبادئه
ودساتيره، على العكس من قادة الأمم . باستثناء الأنبياء عليهم السلام ومن إليهم . حيث
كانوا أبعد الناس عن المبادئ التي دعوا الناس إليها!

قال الشيخ المفيد رحمته الله: (وقف على علي بن الحسين عليهما السلام رجل من أهل بيته،
فأسمعه وشتمه، فلم يكلمه، فلما انصرف قال لجلسائه، قد سمعتم ما قال الرجل،
وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا ردي عليه.

قال: فقالوا له: نفعل، ولقد كنا نحب أن تقول له ويقول..

قال: فأخذ نعليه ومشى وهو يقول: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس
والله يحب المحسنين﴾^(١٠١)، فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً..

قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل فصرخ به فقال: قولوا له هذا علي بن
الحسين.

قال: فخرج إلينا متوثباً للشر، وهو لا يشك أنه إنما جاءه مكافئاً له على بعض
ما كان منه، فقال له علي بن الحسين: يا أخي إنك قد وقفت عليّ آنفاً، فقلت..
وقلت.. فإن كنت قد قلت ما في، فأنا أستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس في
فغفر الله لك..؟

قال: فقبّل الرجل بين عينيه، وقال: بلى، بل قلت فيك ما ليس فيك، وأنا أحق
به^(١٠٢).

وروى حماد اللحام، قال: (أتى رجل أبا عبد الله (ع)، فقال: إن فلاناً ابن
عمك ذكرك، فما ترك شيئاً من الوقعة والشتيمة إلا قاله فيك..
فقال: أبو عبد الله (ع) للجارية: إيتيني بوضوء فتوضأ ودخل..

^(١٠١) سورة آل عمران: ١٣٤.

^(١٠٢) الارشاد: ج ٢ ص ١٤٥.

فقلت في نفسي يدعو عليه!

فصلى ركعتين فقال: يا رب هو حقي قد وهبته، وأنت أجود مني وأكرم، فهبه لي ولا تؤاخذ به ولا تقاسيه، ثم رق فلم يزل يدعو، فجعلت أتعجب^(١٠٣).
وروت سلمة مولاة أبي عبد الله (ع)، قالت: (كنت عند أبي عبد الله: جعفر بن محمد عليه السلام)، حين حضرته الوفاة وأغمي عليه فلما أفاق قال: أعطوا الحسن بن علي بن علي بن الحسين وهو الأفتس سبعين ديناراً.. وأعطي فلاناً كذا.. وفلاناً كذا.. فقلت: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة، يريد أن يقتلك؟! قال: تريد أن لا أكون من الذين قال الله عزوجل: ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾^(١٠٤)؟! نعم يا سلمة، إن الله تعالى خلق الجنة فطيها وطيب ريحها، وأن ريحها يوجد من مسيرة ألفي عام ولا يجدها عاق ولا قاطع رحم^(١٠٥).

وهكذا كان قادة الإسلام يعملون بالعدل والإحسان.. وهكذا يأمر الإسلام..
فهل توجد قادة كهؤلاء؟

وهل في المبادئ والقوانين ما يشابه هذه؟
كلا.

إنه الإسلام وحده.. وقادة الإسلام وحدهم. مع الغض عن سائر أنبياء الله عليهم السلام
وشرائع السماء.. هكذا..

^(١٠٣) مشكاة الأنوار: ص ٢١٧.

^(١٠٤) سورة الرعد: ٢١.

^(١٠٥) غيبة الطوسي: ص ١٩٧.

منهج معاشررة الناس عامة

وأما الناس عامة: فمنهج الإسلام بالنسبة إلى معاشرتهم واضح لا غبار عليه، وقد حدده القرآن الحكيم في آيات: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾^(١٠٦).

و﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾^(١٠٧).

و﴿إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾^(١٠٨).

و﴿وأحسنوا إن الله يحب المحسنین﴾^(١٠٩).

وكذلك: وردت أحاديث كثيرة عن نبي الإسلام (ص) وأئمة المسلمين عليهم السلام بهذا الصدد.

وكلها تنزو إلى شيء واحد وهو: إيجاد مجتمع صالح، يسوده الرخاء والاطمئنان، ويكتنفه الأمن والهدوء.. في نطاق العدل والإحسان، والإخاء والمساواة.. لا في الأمور العامة المهمة فحسب، بل حتى في الصغار التي لا تقيم القوانين والمبادئ لها أية قيمة.. حتى في النظر إلى المجلس، وإليك هذا الحديث الذي يكشف عن مدى اهتمام الإسلام بالعدل في كل صغير وكبير:

روى جميل بن دراج عن أبي عبد الله الصادق (ع)، قال: (كان رسول الله

^(١٠٦) سورة النحل: ٩٠.

^(١٠٧) سورة الأعراف: ١٩٩.

^(١٠٨) سورة الحجرات: ١٣.

^(١٠٩) سورة البقرة: ١٩٥.

(ص) يقسم لحظاته بين أصحابه، فينظر إلى ذا وينظر إلى ذا بالسوية!

قال: ولم يبسط رسول الله (ص) رجله بين أصحابه قط:

وإن كان ليصافحه الرجل فما يترك رسول الله (ص) يده من يده حتى يكون هو التارك، فلما فطنوا لذلك كان الرجل إذا صافحه مال بيده فنزعها من يده^(١١٠).

وقد نظم الإسلام مناهج العشرة تنظيماً دقيقاً، حتى ينتشر في جميع جوانبها العدل والفضل، فقرر:

مناهج اللسان..

ودساتير للعين..

وأنظمة للأذن..

وقوانين للملمس..

وأحكاماً للجسد عامة..

كما أرشد إلى الفضيلة والرذيلة في القلب..

ثم بين كيفية معاشرة الجار، والصاحب، والصديق، والغني، والفقير، والحر، والعبد، والعالم، والمتعلم، والحاكم والمحكوم، والتاجر، والزارع، و.. و..

وفي كل ذلك يبين الطريقة العادلة التي ينبغي السير عليها، ويحذر عن السبل الملتوية، والمناهج المنحرفة إشاعة للعدل، واجتناباً لأصول الظلم والعدوان..

وباتباع هذه المناهج تمكن المسلمون الأول من توحيد الصفوف، وحمل راية العدل ومشاعل الفضيلة.. إلى مشارق الأرض ومغاربها، في ظل دولة موحدة تعمل بالقرآن والسنة، فذابت الفوارق القبلية، والنزعات الطائفية، والأنانيات النفسية، والحواجز الإقليمية.. كما أماتت العناوين المزعومة، والسيادات المزيفة..

فكل مسلم أخو المسلم.. وكل إنسان صديق إنسان.. وكل بلدة شقيقة بلدة..
وكل جار محب جار..

^(١١٠) الكافي: ج ٢ ص ٦٧١ ح ١.

لا غيبة ولا نميمة، ولا غش ولا خداع، ولا ظلم ولا عدوان، ولا استغلال ولا احتكار، ولا بخل ولا حسد، ولا.. ولا..

بل أخوة وصدقة، وحب وألفة، وتزاور وتحابب، وإحسان وإكرام، وبشر وبشاشة، وعدل وفضل، وتوقير واحترام، ورحم ومروءة، وعلم وعمل، ودنيا وآخرة.. ولا نكران: في أن الشواذ من المسلمين كانوا يخترقون أنظمة الإسلام، ويخرجون عن حدوده، ولكن الصبغة العامة كانت هي العدالة والفضيلة..

وبالعكس من ذلك كله: دنيا اليوم فالموجود في قاموسها كل تباعد وتناكر، وعداء وبغضاء، وظلم واستعباد، وتفسخ واستهتار، وهي الصبغة العامة للمجتمعات إلا ما شدّ!

ولا يرجع إلى البشر بصورة عامة، وإلى المسلمين بصورة خاصة، ما فقده من الضياء والهدى.. إلا بالرجوع إلى شرائع السماء، وتعاليم الوحي، وإرشادات الأنبياء ﷺ.. وبالأخص إلى الإسلام الذي تفيأوا بظلاله طيلة ثلاثة عشر قرناً، فوفر لهم الحرية بكل ما في الكلمة من معنى: من حرية التجارة والصحافة، والسفر، والتنقل، والعمل والعلم.. كما منحهم المساواة بمعناها الصحيح.. والرفاه والعز والكرامة، مما يليق بالإنسانية.

أما مناهج الغرب والشرق، التي وقع المسلمون وغير المسلمين - على حد سواء - في دوامتها ممن أعرضوا عن شرائع الأنبياء، فلا تزيد إلا المشاكل، ولا تجرّ إلا إلى العبودية، ولا تبث إلا الشقاق، ولا توفر إلا التطاحن والتهاتر، ولا تنتج - أخيراً - إلا الحروب المدمرة، والإبادة الجماعية، وتبديل دفء الحياة ببرد الموت، وعمارة الأرض بشظايا ودماء.

ولنذكر في هذا العدد مقتطفات من مناهج الإسلام المقررة والمعاشرة إلماعاً إلى طرف من العدالة الاجتماعية التي اعتنى بها الإسلام أكبر اعتناء، وحدد حدودها، وبين معالمها لسعادة الإنسان، والإبقاء على حضارته وازدهاره..

قال معاوية بن وهب لأبي عبد الله (ع): (كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وفيما بيننا وبين خلطانا من الناس؟؟)

قال: فقال (ع): (تؤدون الأمانة إليهم، وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم، وتشهدون جنائزهم)^(١١١).

وعن زيد الشحام: قال: قال لي أبو عبد الله (ع): (اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله عزوجل، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وطول السجود، وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد(ص). أدوا الأمانة إلى من أتمنكم عليها، براً أو فاجراً، فإن رسول الله (ص) كان يأمر بأداء الخيط والمخيط، صلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه، وصدق الحديث، وأدى الأمانة، وحسن خلقه مع الناس، قيل: هذا جعفري، فيسرني ذلك، ويدخل علي منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر..! وإذا كان على غير ذلك، دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل هذا أدب جعفر..! فوالله لحدثني أبي (ع): إن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي (ع)، فيكون زينها، آداهم للأمانة وأفضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيرة عنه، فتقول: من مثل فلان؟! إنه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث)^(١١٢).

وقال مرارزم: قال أبو عبد الله (ع): (عليكم بالصلاة في المساجد، وحسن الجوار للناس، وإقامة الشهادة، وحضور الجنائز، إنه لا بد لكم من الناس، إن أحداً لا يستغني عن الناس حياته، والناس لا بد لبعضهم من بعض)^(١١٣).

إن هذه الأمور آداب إسلامية، وليست بفرائض. إلا نادراً. ومع ذلك فالإسلام

(١١١) الكافي: ج ٢ ص ٦٣٥ ح ٢.

(١١٢) الكافي: ج ٢ ص ٦٣٦ ح ٥.

(١١٣) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٣٩٩ ب ١ ح ٥.

يحث عليها أشد الحث.. حتى أنه يصدرها بكلمة: (عليكم).. ولماذا؟ لأن الإسلام دين اجتماع وألفة، وتحب وتودد..

يروى أبو بصير عن الإمام الباقر (ع): قال: (إن أعرابياً من بني تميم أتى النبي (ص)، فقال له: أوصني، فكان مما أوصاه: تحب إلى الناس يحبوك) (١١٤).
ويروي موسى بن بكير عن أبي الحسن (ع)، قال: (التودد إلى الناس نصف العقل) (١١٥).

وقد بين الإمام الحسن بن علي (عليه السلام) مقياس الاجتماع الصحيح، وأنه لا يتحقق إلا بالألفة والمحبة، فلا اجتماع بدونها، وإن كانت القرابة تتوسط الأطراف، قال (ع): (القريب من قرّبه المودة وإن بعد نسبه، والبعيد من بعدته المودة وإن قرب نسبه..) (١١٦).

ثم مثل الإمام (ع) لذلك مثلاً رائعاً، فقال: (.. لا شيء أقرب إلى شيء من يد إلى جسد، وإن اليد تغل فتقطع، وتقطع فتحسم) (١١٧).

وأخيراً فإن التحب إلى الناس - في نظر الإسلام - من العقل بل نصف العقل: قال الإمام الصادق (ع): (قال رسول الله (ص): التودد إلى الناس نصف العقل) (١١٨).

والناس في المعاشرة صنفان: صنف يصارح كل أحد بما يكره، ثم يعتز بصفته هذه ويفتخر: بأنه صريح..!

وهذا خلاف الموازين الأخلاقية والعدالة الاجتماعية، فإن الأفراد لو صارحوا الناس بمساويهم، لم يبق اجتماع صالح، بل ينقلب المجتمع جحيماً لا يطاق..!

(١١٤) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣٣ ب ٢٩ ح ١.

(١١٥) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣٣ ب ٢٩ ح ٢.

(١١٦) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣٣ ب ٢٩ ح ٤.

(١١٧) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣٣ ب ٢٩ ح ٤.

(١١٨) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣٣ ب ٢٩ ح ٥.

وصنف يداجي ويماري، ويذكر كل أحد بما يجب.. وإن كان ذلك خيالياً،
وبعيداً عن موازين العدل: إنه مداجاة ظالم، وقد كان الأحرى أن يخاشن ردعاً عن
الباطل، وتوجيهاً إلى الحق.. وبعد ذلك يفخر هذا الصنف: بأنه حسن الأخلاق،
يعاشر الناس بالحسن..! ولكن الحق في خلافه أيضاً.

إنهما بعيدان عن العدل، بين مُفَرِّط ومفَرِّط، والوسط هو المجاملة.. إنها مندوبة
عقلاً وشرعاً.

روى السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال: (قال رسول الله (ص): ثلاث يصفين
ود المؤمن لأخيه المسلم: يلقاه بالبشر إذا لقيه، ويوسع له في المجلس إذا جلس إليه،
ويدعوه بأحب الأسماء إليه)^(١١٩).

إنها مجاملة وقد مدحها الإسلام: قال الصادق (ع): (مجاملة الناس ثلث
العقل)^(١٢٠).

أما التعدي عن ذلك إلى الباطل، فيمدح من لا يستحق المدح، أو يثني بما ليس
في الرجل، أو يخضع للباطل، فإنها ليست بمجاملة.. وإنما هي محايلة كما أن
التنقيب عن المساوي، والتجسس عن العيوب، والتفحص عن المذام، فإنها خلال
رذيلة تأبأها الشرائع والعقول.

وضع أحد الحكماء . أمام تلاميذه . ورقاً أبيض، في وسطه نقطة سوداء، ثم قال
لهم: ما ترون؟

قالوا: نرى نقطة سوداء.

قال: فهلا رأيتم الورق الأبيض!!؟

كلكم يغمض عن البياض ويرى السواد!

ويروى (أن عيسى المسيح (ع)، كان يسافر مع جمع من الحواريين، فرموا على

^(١١٩) الكافي: ج ٢ ص ٦٤٣ ح ٣.

^(١٢٠) الكافي: ج ٢ ص ٦٤٣ ح ٢.

كلب ميت منتن، قد كلح وجهه، حتى بدت أسنانه.. فوقف عليه المسيح ﷺ، وإذا بأصحابه ينفرون، ويذكرون ما للكلب من بشاعة المنظر، وكراهة الريح.. قال المسيح العظيم(ع): أما أنا فأرى أسنانه البيضاء).

الرجل الطيب يرى الطيب، ويتغاضى عن الخبيث، وبالعكس الشخص غير المهذب.. أما رأيت الذباب، يترك المواضع الحسنة من الجسد، ويحط على القروح والدمامل؟!!

كان أحد الخطباء بليغاً مجيداً للخطابة.. ولكن كان يبذل السين بالسين، فلم يكن يقدر على النطق بهذا الحرف، يقول الشاعر سعدي، كنت في مجلس يخطب فيه هذا الرجل، وكنت مغرماً بخطاباته الرنانة، وإذا بشخص إلى جنبي يقول: لا يجيد الخطيب السين..! قلت له: هلا نظرت إلى خطابته البليغة؟!!

وعلى أي.. فالإسلام يكره كل كشف عن العيوب وذكرها، فإن ذلك يثير البغضاء، ويفصم عرى الاجتماع، ويخل بالتوازن، وينافي العدالة! كما يكره كل رياء ومداجاة ومداهنة ومصانعة.

يقول القرآن الحكيم: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾^(١٢١).

ويقول: ﴿وَدُوا لَوْ تَدَهَّنْ فَيَدَهْنُونَ﴾^(١٢٢).

ولكن لا يحايي الإسلام الحقوق والواجبات، بل يجعل إزاء كل واجب حقاً، فمن دفع الحق استحق الواجب، وإلا فلا..

عن الإمام الصادق (ع) عن آبائه ﷺ: في وصية النبي (ص) لعلي(ع) قال: (يا علي من لم تنتفع بدينه ولا دنياه فلا خير لك في مجالسته، ومن لم يوجب لك فلا توجب له ولا كرامة)^(١٢٣).

^(١٢١) سورة الحجرات: ١٢.

^(١٢٢) سورة القلم: ٩.

^(١٢٣) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٣١ ب ٢٨ ح ١.

وليس معنى هذا أن الإسلام لا يجب العفو والإحسان، بل معناه: أن الحقوق بإزاء الواجبات، وبعد ذلك يبقى الفضل، وإن انتهى دور العدل..
جاء رجل إلى الصادق (ع)، فقال: يا ابن رسول الله أخبرني عن مكارم الأخلاق، فقال: (العفو عمن ظلمك، وصلة من قطعك، وإعطاء من حرمك، وقول الحق ولو على نفسك)^(١٢٤).



وبعدما يفرغ الإسلام من وضع الخطط العامة لعدالة العشرة، ومنهاج الحياة المستقيمة، يتوجه إلى الفروع والتوابع: فيبين كل فضيلة وكل رذيلة.. ويرغب في الأولى ويحذر عن الأخرى، ليعيش المجتمع في ظل الرفاه ويسوده العدل والإخاء.. وللأخلاق في الإسلام عرض عريض، نحيله إلى كتب الأخلاق^(١٢٥).
ونذكر ههنا أمودجاً من التوجيهات الإسلامية بهذا الصدد:

^(١٢٤) بحار الأنوار: ج ٦٦ ص ٣٦٨ ب ٣٨ ح ٦٦.

^(١٢٥) انظر (الفضائل والأضداد) و(الأخلاق الإسلامية) و(الفضيلة الإسلامية) وموسوعة الفقه كتاب (الآداب والسنن) للإمام الشيرازي.

الإِنصاف

الإنسان يحتاج إلى معاشرة الناس، في بيعه وشرائه.. في زواجه وفراقه.. في تعليمه وتعلمه.. في حله وترحاله.. والعشرة لا بد وأن يقع فيها التضارب، ومن طبيعة البشر الشرهة (أن تجر النار إلى قرصها) وبهذا تتعقد المشاكل، وتدور المهاترات، ويقع الناس في دوامة العداة والبغضاء.. إن كل واحد من الطرفين لا يفكر إلا في أن الحق لنفسه ولا ينظر إلى المتخاصم فيه إلا من زاوية لنفسه، وبذلك تتباين وجهات النظر.

وإذا اصطدمت المشكلة بالمحاكم، فحدث عن الأموال والأعراض والأوقات المهدورة ولا حرج، وبعد كل ذلك، فالمشكلة بحالها..! وليس من حل صحيح للمشاكل إلا: (بالإنصاف) فلو نظر كل فرد إلى نفسه وإلى غيره، من زاوية حيادية، ورأى ماله وما عليه، فسرعان ما تحل المشاكل.. إن لم يكن كلها فالكثرة الغالبة منها، وفي القلة الباقية تتوافق وجهات الأنظار إلا في قليل من الخصومة، وأجدر بما أن تزول بشيء من التنازل، أو يسير من التواضع.. ومعظم الفضل في حل المشاكل سريعاً، في ظل الدساتير الإسلامية يرجع إلى تشبع المسلمين بروح الإنصاف . آنذاك ..

أما الغرب الآخذ بالزمام . اليوم . فقد محا عن قاموسه ذلك، ولذا ترى المحاكم دعوى مخمرة منذ ثلاثين سنة، وعشرين وعشرة.. وأمام عيني الآن ترفع . في قطعة من الأرض . طال ثلاث عشرة سنة، حتى مات أحد المتخاصمين بعدما استنفذت المحاكم والمحامون ومن إليهم.. قوى الطرفين الخيرة من مال وجاه ونشاط بدني وفكري..!!

أما الإسلام فمن جانب: يشبع الطرفين بروح الإنصاف، ومن جانب: يسير دفقة المحاكم على العدل والبساطة، ولذا لا تطول المرافعة في ظل الإسلام أكثر من ساعات...!!

وبالعكس من كلا الجانبين الأنظمة الغربية: التي تبني المحاكم على الرشوة والخدیعة والظلم.. وتملاً الأفراد بالشحناء والكراهية والتعدي.. فلا تحل المشاكل إلى يوم يبعثون...!!

ولهذا الغرض. لا تحل المشاكل الترافعية فحسب، بل تحل كل خلاف بين الأفراد والجماعات، مهما كان نوعه.: يحث الإسلام على تحلي الناس بالإنصاف، حتى إذا حدث خلاف.. أو مالوا إليه.. رجعوا إلى الميزان الفطري، الذي ينطوي عليه الرجل المنصف، وإذا به يندك أمام هذه الفضيلة الرفیعة.

روى السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): (سيد الأعمال: إنصاف الناس من نفسك، ومواساة الأخ في الله، وذكر الله على كل حال) (١٢٦).

وروى زرارة عن أبي جعفر (ع)، قال: قال أمير المؤمنين (ع) في كلام له: (ألا إنه من ينصف الناس من نفسه، لم يزد الله إلا عزاً) (١٢٧).

وروى محمد بن مسلم عن الإمام الصادق (ع)، قال: (ثلاث هم أقرب الخلق إلى الله عز وجل يوم القيامة، حتى يفرغ من الحساب: رجل لم تدعه قدرة في حال غضبه إلى أن يحيف على من تحت يده، ورجل مشى بين اثنين فلم يمل مع أحدهما على الآخر بشعيرة، ورجل قال بالحق فيما له وعليه) (١٢٨).

وعن جعفر بن إبراهيم عن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): (من

(١٢٦) وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٢٢٥ ب ٣٤ ح ٢.

(١٢٧) وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٢٢٥ ب ٣٤ ح ٣.

(١٢٨) الكافي: ج ٢ ص ١٤٠ ح ٥.

واسى الفقير من ماله، وأنصف الناس من نفسه، فذلك المؤمن حقاً^(١٢٩).
وعن أبي حمزة الثمالي، عن علي بن الحسين عليهما السلام قال: (كان رسول الله (ص)
يقول في آخر خطبته: طوبى لمن طاب خلقه وطهرت سجيته، وصلحت سريرته،
وحسنت علانيته، وأنفق الفضل من ماله، وأمسك الفضل من قوله، وأنصف الناس
من نفسه)^(١٣٠).

وعن معاوية بن وهب: عن أبي عبد الله (ع) قال: (من يضمن لي أربعة بأربعة
أبيات في الجنة، أنفق ولا تخف فقراً، وافش السلام في العالم، واترك المرء وإن كنت
محقاً، وانصف الناس من نفسك)^(١٣١).

إلى أحاديث.. وأحاديث..

^(١٢٩) الكافي: ج ٢ ص ١٤٧ ح ١٧.

^(١٣٠) الكافي: ج ٢ ص ١٤٤ ح ١.

^(١٣١) الكافي: ج ٢ ص ١٤٤ ح ٢.

التآخي

أفراد الإنسان فرع شجرة واحدة: أصلها: آدم وحواء (عليهما السلام)، ثم رؤوس القبائل كالأغصان، والأفراد كالأوراق، فهم أخوة في أصل الخلق، ينتهون إلى نسب واحد. وينسب إلى أمير المؤمنين (ع):

الناس من جهة التمثال أكفاء أبوهم آدم والأم حواء^(١٣٢)

إذاً: فالأفضل بهم أن يتآخوا خُلُقاً وعشرة، كما هم أخوة نسباً وأصلاً. وبالأخوة البشرية تتقارب القلوب وينتظم الاجتماع، وتصفو النفوس، ويسود الجميع حب وسلام.. ومن العدل أن يتكافأ الأفراد أخوة ووداداً.. كما أن من الظلم أن يتجنب بعض عن بعض، ويتعد إنسان عن إنسان، ولماذا تميل كفة أحدهم إلى العلو، وكفة الآخر إلى الأسفل؟! إنهما كفتان متقابلتان.

أما المال والجاه والشرف، فأجدر بهما أن تكونا أسباباً للعدل للظلم، وللتواضع لا للتكبر!!

وقد حرص الإسلام الحرص كله، على الأخوة الإسلامية . بما في الكلمة من معنى . وقد آخى نبي الإسلام العظيم (ص) بين المسلمين، بعدما هاجر من مكة إلى المدينة، وما نرى اليوم من خطاب المسلمين بعضهم لبعض بكلمة: (الأخ) ليس إلا من تلك البذرة التي بذرها الإسلام قبل أربعة عشر قرناً، في الجزيرة العربية، فأصبح المسلم في شرق الأرض أحياناً للمسلم في غربها، من غير فرق بين الفقير والغني..

(١٣٢) ديوان الإمام علي (عليه السلام): ص ٢٤.

والحاكم والمحكوم.. والعالم والمتعلم.. والحر والعبد.. والشريف والوضيع.. حتى أن من يخرج عن هذه الأخوة، يعد خارجاً عن رتبة الإسلام، فالمسلم أخ المسلم رضي أو كره..

وليس هذا فحسب.. بل حرص الإسلام على استفادة الإخوان والتحبب إليهم، وإيجاد الصداقة مع الناس، كل ذلك حرصاً على العدالة الاجتماعية، وإذابة للفوارق المزعومة.

قال أمير المؤمنين (ع): قال رسول الله (ص): (لا يدخل الجنة رجل ليس له فرط، قيل يا رسول الله ولكل فرط؟ قال: نعم إن من فرط الرجل أخاه في الله) (١٣٣).

وقال أمير المؤمنين (ع):

عليك بإخوان الصفا، فإنهم عماد إذا استنجدتهم وظهور

وما بكثير ألف خل وصاحب وإن عدواً واحداً لكثير (١٣٤)

وروى محمد بن زيد قال: سمعت الرضا (ع) يقول: (من استفاد أخاً في الله، استفاد بيتاً في الجنة) (١٣٥).

وروى جعفر بن ابراهيم، عن جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام) قال: (أكثرنا من الأصدقاء في الدنيا، فإنهم ينفعون في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فحوائج يقومون بها، وأما الآخرة فإن أهل جهنم قالوا: ﴿فما لنا من شافعين، ولا صديق حميم﴾ (١٣٦) (١٣٧).

وروي عن الصادق (ع) قال: (استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن دعوة مستجابة.. وقال: استكثروا من الإخوان، فإن لكل مؤمن شفاعاة.. وقال: أكثرنا

(١٣٣) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٠٧ ب ٧ ح ٤.

(١٣٤) ديوان الإمام علي (عليه السلام): ص ٢٠٧.

(١٣٥) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٠٧ ب ٧ ح ١.

(١٣٦) سورة الشعراء: ١٠٠، ١٠١.

(١٣٧) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٠٧ ب ٧ ح ٥.

من مؤاخاة المؤمنين، فإن لهم عند الله يداً، يكافئهم بها يوم القيامة^(١٣٨).
وفي نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (ع): (أعجز الناس من أعجز عن
اكتساب الإخوان، وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم)^(١٣٩).
وليست الأخوة الإسلامية، أخوة إسمية، وإنما هي عنوان على الأخوة الراقية،
يجب أحدهما للآخر ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه.
سأل ابن أعين الصادق (ع): (عن حق المسلم على أخيه؟
فلم يجبه..

قال: فلما جئت أودعه..

قلت: سألتك فلم تجبني؟

قال: إني أخاف أن تكفروا، وإن من أشد ما افترض الله على خلقه ثلاثاً:
إنصاف المؤمن من نفسه، حتى لا يرضى لأخيه المؤمن من نفسه إلا بما يرضى
لنفسه، ومواساة الأخ المؤمن في المال، وذكر الله على كل حال، ليس سبحانه الله
والحمد لله، ولكن عند ما حرم الله عليه فيدعه)^(١٤٠).

قال الوصافي: قال لي أبو جعفر (ع): (أرأيت من قبلكم إذا كان الرجل ليس
عليه رداء، وعند بعض إخوانه رداء يطرحه عليه؟
قلت: لا.

قال: فإذا كان عنده ليس إزار يوصل إليه بعض إخوانه بفضل إزاره حتى يجد له
إزاراً؟

قلت: لا.

فضرب بيده على فخذه، ثم قال: ما هؤلاء بأخوة)^(١٤١).

^(١٣٨) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤٠٨ ب ٧ ح ٦.

^(١٣٩) نهج البلاغة: ج ١٨ ص ١٢ ص ١١٢.

^(١٤٠) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤١٥ ب ١٤ ح ٥.

^(١٤١) وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٤١٤ ب ١٤ ح ١.

العدالة حتى مع الأعداء

والإسلام بعد الحث على العدالة بالنسبة إلى الأقرباء والأبعد يذهب شوطاً آخر، وهو الحث على العدالة بالنسبة إلى الأعداء، وهذا في الحقيقة من كمال الإسلام الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وما أحوج المجتمع إلى الإرشاد بالنسبة إلى العدالة مع الأعداء، فإن الإنسان مهما لزم جانب العدل والإنصاف، نحو الأقرباء وسائر الناس.. فانه يزيغ مع الأعداء عادة، فإن العدو . بما له من اصطدام عنيف مع النفس . يولد في النفوس وقعاً عدوانياً، وهو كاف للخروج عن الموازين.. ولذا نرى أن من سبّه أحداً يقابل بأضعافه من الشتم والوقية.. وهكذا من ضرب رجلاً ضربة تلقى ضربات..

وعلى هذا يقرر الإسلام . أولاً - رد الاعتداء بمثله، لا أكثر، فإذا رد أكثر كان ينظر الإسلام المقدر الزائد اعتداءً وظلماً، وبهذا المعنى يروى:
(إن المظلوم قد يصبح ظالماً..).

يقول القرآن الحكيم: ﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾^(١٤٢).

وثانياً: يجذ العفو وعدم الانتقام، وقلع جذور البغضاء والعدوان عن النفس يقول القرآن الحكيم: ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خيراً للصابرين﴾^(١٤٣).

ويقول: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾^(١٤٤).

^(١٤٢) سورة البقرة: ١٩٤.

^(١٤٣) سورة النحل: ١٢٦.

^(١٤٤) سورة الأعراف: ١٩٩.

وقال رسول الله (ص): (ثلاث والذي نفسي بيده، إن كنت حالفاً لحلفت عليهن: ما نقصت صدقة من مال فقد قرا، ولا عافا رجل عن مظلمة بيتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر).

وقال (ص): (العفو لا يزيد الناس إلا عزاً، فاعفوا يعزكم الله) (١٤٥).

وقال (ص) لعتبة: (ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟: تصل من قطعك وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك) (١٤٦).

وقال (ص): (قال موسى: يا رب أي عبادك أعز عليك؟ قال: الذي إذا قدر عفا).

إلى مئات الأحاديث.. وألوفها.. مما تأمر بالعفو وحسن معاشرته الأعداء!.. ولقد عفى رسول الله (ص) عن (وحشي) قاتل (حمزة سيد الشهداء) مع ما ارتكبه من عظيم الإثم (١٤٧).. وعفى عن أهل مكة (١٤٨).. مع أنهم كانوا رؤساء المؤامرات على النبي (ص) وأصحابه من أول البعثة إلى أواخر عمره الشريف.. وعفى.. وعفى.. وعفى.. وعفى أمير المؤمنين (ع) عن أهل الجمل (١٤٩): كمروان وابن الزبير وأضربهما، مع أنهم جروا إليه كل أذية وصعوبة كان (ع) يقاسيها طيلة حياته، وبسبب ذلك قتل شهيداً، وأوذى في ولده: فإن الجمل صار سبباً لصفين.. وصفين ولد النهروان.. وكان قتله (ع) من ولائد النهروان..

وعفى الإمام الحسن (ع) عمن كان يسبه بأمر مروان، حين أقدم الإمام الحسين (ع) وأراد الانتقام منه.. وعفى.. وعفى..

(١٤٥) راجع وسائل الشيعة: ج ١١ ص ٢١٨ ب ٢٩ ح ١، وفيه: «العفو يزيد صاحبه عزاً». الحديث.

(١٤٦) راجع وسائل الشيعة: ج ٨ ص ٥٢١ ب ١١٣ ح ٥، وفيه: «ألا أدلكم على خير خلائق أهل الدنيا والآخرة...». الحديث.

(١٤٧) راجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج ١. ٢، للإمام المؤلف (دام ظله).

(١٤٨) راجع كتاب (ولأول مرة في تاريخ العالم) ج ١. ٢، للإمام المؤلف (دام ظله).

(١٤٩) راجع كتاب (الحكومة الإسلامية في عهد أمير المؤمنين ﷺ)، للإمام المؤلف (دام ظله).

وعفى الإمام الحسين (ع) عن الحر بن يزيد الرياحي، مع أنه كان أول خارج عليه، وأول من حبسه حتى انجر إلى قتله (١٥٠).

وهكذا سائر الأئمة عليهم السلام:

فهذا علي بن الحسين زين العابدين (ع) كان من أعدى أعدائه وأعداء أبيه: مروان، آذى أمير المؤمنين (ع) وأقام عليه حرباً.. وآذى الإمام الحسن (ع) وسبه ورمى جنازته بالنبال.. وآذى الإمام الحسين (ع) وشتمه وكان شريكاً في تشريده (ع) من وطنه إلى حيث قتل، ثم فرح بذلك وآذى الإمام السجاد (ع) بنفسه..

ثم انظر: أرسل يزيد بن معاوية جيشاً لإباحة المدينة المنورة . فأباحوها في يوم الحرة . وإذا بمروان يأتي إلى علي بن الحسين (ع)، ويقول: إن لي حرماً، وحرمي يكون مع حرمك؟ . وكان غير حرم علي بن الحسين (ع) مستباح العرض والقتل وكل شيء..

فقال الإمام (ع): افعل.

فبعث مروان بامرأته، وهي عائشة ابنة عثمان بن عفان وحرمه إلى علي بن الحسين عليه السلام، فخرج الإمام (ع) بحرمه وحرم مروان إلى ينبع.. فما أصيب حرم مروان بشيء..!! (١٥١)

وهذا الإمام الباقر (ع): قال له نصراني: أنت بقر!

قال: لا، أنا باقر.

قال: أنت ابن الطباخة!

قال: ذاك حرفتها.

قال: أنت ابن السوداء الزنجية البذية!

قال: إن كنت صدقت غفر الله لها وإن كنت كذبت غفر الله لك!!!

(١٥٠) راجع كتاب (جهاد الحسين عليه السلام ومصرعه)، للإمام المؤلف (دام ظله).

(١٥١) راجع كتاب (حكومة الرسول صلى الله عليه وآله والإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام) للإمام المؤلف (دام ظله).

فأسلم النصراني (١٥٢).

وهكذا سائر أئمة الإسلام ﷺ.. مما هو مذكور في كتب السير والأخبار
والتواريخ..

(١٥٢) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٢٨٩ ب ٦ ح ١٢.

كلمة الختام

عندما شرعنا في الكتاب كنا عازمين على بيان العدالة الإسلامية من ستة نواح:

١: عدالة الأسرة..

٢: عدالة العشرة..

٣: عدالة القضاء..

٤: عدالة السلطة..

٥: عدالة العبادة..

٦: عدالة ذوات الأرواح..

كل ذلك بصورة مفصلة: لكن عوائق حالت دون الإسهاب في الموضوع.. كما أن موانع حدثت من إتمام ما رمناه من عرض النواحي الست.. وها نقدم هذا الموجز إلى الطبع. سائلين الله تعالى أن يوفقنا لإتمام النواحي المقصودة في مجلد ثان. كما وان من الواجب أن أعترف بأن الظروف الملائسة لم تسمح بتنقيح الباحث السالفة. كما ينبغي. فإن العدالة الإسلامية ذات أغصان وجذور، تورف الحياة بوارف ظلها، فإنه المبدأ الوحيد الذي يسبغ على الكون العدل والإحسان، ويتفياً الإنسان في ظلاله في السعادة والرفاه.. ويتقدم نحو الرقي والكمال، وهو حقيقة اعترف بها المنصفون من علماء الدنيا من حين بزوغ نور الإسلام في ربوع الجزيرة العربية إلى هذا اليوم.

وإليك اعتراف (برنارد شو) الذي يعد من أعظم علماء الغرب:

(إن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير (محمد): هذا النبي الذي وضع دينه دائماً موضع الاحترام والإجلال، وهو أقوى دين على هضم المدنيات، خالد

خلود الأبد، ولقد رأيت كثيراً من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في القارة الأوربية بعد هذه الحرب، وإذا أراد العالم النجاة من هذه الشرور، فعليه بهذا الدين إنه دين السلام والتعاون والعدالة.

في ظل شريعة متمدنة محكمة.

لم تنس أمراً من أمور الدنيا إلا رسمته ووزنته بميزان لا يخطئ أبداً.

ويؤسفني أن أقول:

إني وضعت كتاباً عن (محمد) لكنه صودر لخروجه على تقاليد السكسون).

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كربلاء المقدسة

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

الفهرس

كلمة الناشر.....	٣
مقدمة الناشر في الطبعة الأولى.....	٥
تمهيد.....	٧
الخطوط العامة.....	١٠
فصل في عدالة الأسرة.....	١٨
عدالة الأسرة.....	١٩
الزواج.....	٢٠
تعدد الزوجات.....	٢٤
المساواة بين الزوج والزوجة.....	٣٠
العشرة البيتية.....	٣٢
الطلاق.....	٣٥
بين الأبوين والأولاد.....	٣٧
فصل في عدالة العشرة.....	٤١
عدالة العشرة.....	٤٢
منهج معاشرة الأقرباء.....	٤٢
منهج معاشرة الناس عامة.....	٥٠
الإنصاف.....	٥٨
التآخي.....	٦١
العدالة حتى مع الأعداء.....	٦٤
كلمة الختام.....	٦٨

